نُصْرَةُ المظلُوم

٢٩ ـ يقول رَبُّ العزّة سُبْحانه في الحديث القُدْسي:

«وَعِزّتِي وجَلالِي لأَنتقِمَنَّ مِنَ الظَّالم في عاجلِهِ وآجله، ولأنتقمنَّ مِمَّنْ رأى مَظْلوماً فقدرَ أنْ ينصُرَهُ فلَمْ يَنصُرْهُ»[(١)].

يقول الحق سبحانه عن أول ظلم وقع على الأرض بين ابنين من أبناء آدم:

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ[(٢)] بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٢٩].

فهذا أول تمرُّد على منهج الله وعلى أمره؛ لذلك قال هابيل: لا تَلُمْني فأنا لا دَخْلَ لي في القربان المتقبَّل، لأن هذا من عند الله، والله لم يظلمك، لأن ربنا يتقبَّل من المتقين، وأنت لَسْتَ بمتقٍ؛ لأنك لم تَرْضَ بالحكم الأول في أن تبتعد البطون[(٣)].

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٠٦٥٢) من حديث ابن عباس، وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٦٧) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه من لم أعرفهم».

(٢) باء بذنبه وبإثمه: احتمله. وقيل: اعترف به. وقال ثعلب في قوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ . . . ﴾ [المائدة: ٢٩]، معناه: إن عزمت على قتلي كان الإثم بك لا بي. (لسان العرب ـ مادة: بوأ).

(٣) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤١): «قال السدي فيما ذكر عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد ومعه جارية، فكان يزوّج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما هابيل وقابيل، وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه وقال: =

obeikandl.com

إذن: فأنت عندك إثمان:

الإثم الأول: هو رَفْضُك وعدم قبولك حُكْم الله ومنهجه، وهو الذي من أجله لم يقبل الله قُرْبانك.

والإثم الثاني: هو قَتْلي، وأنا لا دَخْلَ لي في هذه المسألة؛ لأن الظالم لا بُدَّ أن يأخذ جزاءه.

وجزاء الظالمين تربية عاجلة للوقوف أمام سُعارات[1] الظلم من الظالمين، لأن الحق سبحانه لو تركها للآخرة لاستشرى الظلم، ولأصبح الذي لا يؤمن بالآخرة مُحْترِفاً للظلم.

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مَثَل ذلك في «سورة الكهف»، حينما ذكر لنا قصة ذي القرنين[2]، الذي آتاه الله من كل شيء سبباً، فأتبع سبباً.

وبعد ذلك بيَّن لنا مهمة مَنْ أُوتي الأسبابَ واتبع الأسباب، وجعل قضيته في الأرض لعمارة الكون وصلاحه، وتأمين المجتمع.

قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ[3] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦].

= هي أختي ولدت معي وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى».

(١) السُّعْر: شهوة مع جوع. والسُّعْر والسُّعْر: الجنون. وسُعار العطش: التهابه. والسُّعار: حر النار. (لسان العرب ـ مادة: سعر) والمقصود استشراء شهوة الظلم عند الظالمين.

(٢) ذكر ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٠٠) أنه كان في زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، وأنه طاف بالبيت معه أول ما بناه، وقرب إلى الله قرباناً. وقال علي بن أبي طالب عن ذي القرنين: كان عبداً ناصحاً لله فناصحه، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فسمي ذا القرنين.

(٣) أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه. (ذكره ابن كثير في تفسيره ٣/ ١٠٢) وهناك قراءتان (حمئة، حامية). قال ابن جرير الطبري: «الصواب أنهما قراءتان مشهورتان، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب». قال ابن كثير: «ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل، وحمئة في ماء وطين أسود».

إذن: فقد خيَّره: إمَّا أنْ تعمل هذا، وإمَّا أنْ تعمل ذاك.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ . . .﴾ [الكهف: ٨٧].

ذلك هو القانون الذي يجب أن يسير في المجتمع، حتى لا أترك لمن لا يؤمن بإله، ولا يؤمن بآخرة أن يستشري في الظلم، فليأخذ عقابه في الدنيا.

يقول تعالى:

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ[1] ذَٰلِكَ . . .﴾ [الطور: ٤٧].

أي: قبل الآخرة لهم عذاب؛ ولذلك حين يرى الناس مصرع الظالم، أو ترى الخيبة التي حدثتْ له فَهُمْ يأخذون من ذلك العِظَة، وجيلنا نحن عاصر ظالمين كثيرين نكَّل بعضهم ببعض، ولو مُكِّن الظالمون منهم ما فعلوا بهم ما فعله بعضهم ببعض.

فهؤلاء الظالمون لهم عذابٌ أقربُ من عذاب الآخرة، لأنه لو أُجِّلتْ المسألة كلُّها للآخرة لاستشرى بغْي الظالم الذي لا يؤمن بالحياة الآخرة.

أما مَنْ يؤمن بالآخرة، فهو مَنْ يحيا بأدب الإيمان في الكون، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج، عكس مَنْ يُعربِد في الكون، لذلك لا بُدَّ أن يأتيَ العقاب لمن يُعربد في الكون أثناء الحياة الدنيا.

وأراد الحق سبحانه أن يجري عذابهم أمامنا لتتضح المسألة.

ولقد رفض «ذو القرنين» أن يأخذ مقابلاً لبناء الرَّدْم[2]؛ لأن مهمة الأقوياء في الأرض من أصحاب الطاقة الإيمانية أن يمنعوا الظلم بلا مقابل حتى يعتدل ميزان الحياة؛ لأن الضعيف قد لا يملك ما يدفعه للقوي.

---

(١) دون هنا بمعنى (قبل)، كقولك: دون النهر قتال. ودون قتل الأسد أهوال. أي: قبل أن تصل إلى ذلك. (اللسان ـ مادة: دون).

(٢) الردم: السد. والردم: ما يسقط من الجدار إذا انهدم. وكل ما لُفِّق بعضه ببعض فقد رُدِم. (اللسان ـ مادة: ردم). قال ابن عباس: أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سداً فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: (ما مكني فيه ربي خير) أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه. (تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٤).

ولو أن كُلَّ قوي أراد ثَمناً لِنُصْرة الضعيف لاختلَّ ميزان الكون وطغَى الناس، ولكنّ الأقوياء في عالمنا يريدون أنْ يظلموا بقوتهم، لذلك يختلّ ميزان الكون الذي نعيش فيه.

ولننظر إلى تفويض اللّه لـ« ذي القرنين»، وكيف أحسن « ذو القرنين» الحكْم بين الناس، وأقام العَدْل فيهم، وكيف ترصَّد الظالمين.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا[1] * وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُ جَزَآءَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٨].

هكذا أقام « ذو القرنين» العَدْل، بتعذيب الظالم، وتكريم المؤمن صاحب العمل الصالح.

فأوّل ما يجب أنْ يهتم به كل مُمكّن في الأرض، بعد توليد الطاقة من الأسباب، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده.

وفي هذا إصلاح لحركة الحياة في الدنيا، أما في الآخرة فللظالم عذاب آخر، ذلك أن الذين يعيثون[2] فساداً وظُلْماً في الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة.

ولو تركناهم ولم نضرب على أيديهم؛ لملأوا الأرض فساداً، والفسادُ في المجتمع لا يصيب المفسِدَ فقط، ولكن يكتوي به المجتمع كله.

إذن: فلا بُدَّ أن نُعجِّل لهم بالعقوبة في الدنيا، لِنحمِي المجتمع من الفساد، ثم يُعذِّبهم اللّه في الآخرة، وهم لم يؤمنوا به سبحانه، ولم يحسبوا حسابَ لقائه يوم القيامة.

وإنْ لم يُحصّن العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم ووليّ ومُسلَّط، سنجد كل إنسان وهو يضنُّ بجهده في الحياة يكتفي بأنْ يصنعَ على قَدْر حاجته، بحيث لا يترك للظالم أن يأخذ منه شيئاً، فلا يتحرك في الحياة إلا حركة محدودة، ولا يعمل إلا بقدْر ما يكفيه فقط.

---

(١) نُكُر الشيء فهو نُكْر: اشتد وصَعُبَ، أو قَبُح واستوحشت منه النفوس.

(٢) العَيْث: الإسراع في الفساد. عاث الذئب في الغنم: أفسد. عاث في ماله: أسرع إنفاقه. (اللسان ـ مادة: عيث).

فإذا ما حدث ذلك فلن يجد الضعاف الذين لا يقدرون على الحركة الإنتاجية أيَّ فائض ليعيشوا به، وهذا يُحدِث الفساد والخلَل في حركة الحياة.

والحق سبحانه يأخذ الظالمين درجةً درجةً، فهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويعطيهم نعمه، ثم يرهقهم بما وصلوا إليه، فإنه سبحانه يُملي للظالم ويُعليه، ثم يُلقيه من عَلٍ.

يقول تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ[1]﴾ [الأنعام: ٤٤].

أي: لم نُعجِّل بعقاب الظالمين، بل تركناهم فتمادوا في المعصية، حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد، فسبحانه يمدُّ ويُملي لهم ليأخذوا وليبنُوا وليترفوا، وليفرحوا بما أخذوا، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبواب كل شيء.

فالحق سبحانه يرفع الظالم إلى درجات عالية، ثم يخسف به الأرض.

فالمجتمعات حين تبتعد عن منهج السماء نجد الحق سبحانه ينتقم منهم انتقاماً يناسب جُرْمهم، ولو أنه أخذهم على حالهم المتواضع فلن تكون الضربة قوية.

لذلك يُوسِّع عليهم في كل شيء، حتى إذا ما سلب منهم وأخذهم بغتة وفجأة تكون الضَّربة قوية قاصمة، ويصيبهم اليأس والحسرة.

وربنا سبحانه يعطي الظالمين الكثير، ويمدُّهم في طغيانهم، ثم يأخذهم أَخْذ عزيز مقتدر، وقد دَلَّتْ وقائع الحياة على هذا، ورأينا أكثر من ظالم وجبَّار في الأرض والحق يُملي له في العُلو ويمدُّ له في هذه الأسباب، ثم يأخذه أَخْذ عزيز مقتدر، ولو بواسطة حارسه.

---

(١) أبلس: حزن ويئس وتحيَّر وسكت غمّاً وهَمّاً، أو سكت لانقطاع حجته، وكلها معانٍ متقاربة. والإبلاس: الانكسار والحزن. والإبلاس: القنوط وقطع الرجاء من رحمة الله تعالى. (لسان العرب ـ مادة: بلس).

يقول تعالى:

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟[1] فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

فالترف الذي عاشوا فيه جاء من الظلم، وأَخْذ حقوق الناس، وامتصاص دماء الكادحين، حتى أطغتْهم النعمة، وأنستهم المنعم سبحانه، وقد مدَّ الله لهم في النعمة.

ويقول تعالى:

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى[2] مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

والإملاء هو الإمهال، وهو التأخير، أي: أنه لا يأخذهم مرة واحدة، فساعة يقوم الظالم الفاسد بالكثير من الشر في المجتمع، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات.

ونسمع دائماً مَنْ يقول: لو لم يكُنْ هناك إيمان لأكل الناس بعضهم بعضاً، فالإيمان يعطي الأُسْوة واليقين.

والإملاء للظالم ليس إهمالاً له من المولَى تعالى، بل هو إمْهال فقط، ثم يأخذه الله أَخْذ عزيز مُقْتدر.

والحق سبحانه يُوضِّح: إذا كنتُ سأستدرج وسأُملي، فاعلم أن كيدي متين.

والكَيْد هو المكْر، والمكر هو أَخْذهم من حَيْثُ لا يشعرون، وهي عملية خفيَّة تسوء المكورَ به، وهو تدبير خفيّ حتى لا يملك المكور به مَلكَات الدَّفْع.

وإذا كان البشر يمكرون ويُدبِّرون تدبيراً يَخْفى على بعضهم، فماذا حين يُدبِّر الله للظالمين مكيدة أو مَكْراً؟

أيستطيع واحد أنْ يكشفَ من ذلك شيئاً؟

---

(١) الترف: التنعُّم. والمترَف: المتنعِّم المتوسِّع في ملاذِّ الدنيا وشهواتها. (لسان العرب ـ مادة: ترف). أي: أن الذين ظلموا جروا وراء شهواتهم وتمادوا في الترف فأبطرهم وأطغاهم.

(٢) الكيد من الله تعالى هو إبطال كيد الكائدين ومعاقبتهم على ما دبَّروه من كيد.

طبعاً، لن يستطيع أحدٌ ذلك.

وهكذا أراد اللّه سبحانه الإمهال والإملاء ليكون لهما معنى واضح في الحياة، والإملاء للظالم لتزداد مظالمه زيادةً تجعل الأمة التي يعيش فيها تكره ظُلْمه، فإذا وقع عليه عذاب، لا يعطف عليه أحدٌ.

ولذلك نجد الحق سبحانه حينما يريد أنْ يُعذِّب أحداً يقول:

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ[1] مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

وذلك لِيتمَّ التعذيب أمام المجتمع الذي شَقِي بإفسادهم وشقي بمظالمهم، فمن يُعتدى على عِرْضه ويرى عذاب المعتدي فهو يُشْفى.

إن عَدْلَ الرحمٰن هو الذي فرض علينا أن نتعامل مع الجريمة بالعقاب عليها، وأن يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا.

إن الذي يجترئ على حقوق الناس يجترئ أيضاً على حقوق اللّه؛ ولذلك فمقتضى إيثار الإيمان هو إرضاء اللّه لا إرضاء الناس.

وفي إنزال العقاب بالمعتدي خضوعٌ لمنهج اللّه، وفي رؤية هذا العقاب من قِبَل الآخرين هو نَشْرٌ لفكرة أن المعتدي ينال عقاباً، ولذلك شَرع الحق سبحانه العقاب والعلانية فيه ليستقر التوازن في النفس البشرية.

والحق سبحانه مُنزَّه عن أنْ يُهلكهم بمجاوزة حَدٍّ، لكن له أنْ يُهلِكهم بعدْلٍ؛ لأن العدلَ ميزانٌ، فإن كان الوزْنُ ناقصاً كان الخسران، ومن العدل العقاب، وإنْ كان الوزن مستوفياً كان الثواب.

وفي مجالنا البشري، لحظة أنْ نأخذَ الظالم بالعقوبة فنحن نتعبه فعلاً، لكننا نُريح كُلَّ المظلومين، وهذه هي العدالة فعلاً.

ومن خطى التقنينات الوضعية البشرية هو ذلك التراخي في إنفاذ الحقوق في التقاضي، فقد تحدثُ الجريمة اليوم، ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم إلا

---

(١) قال ابن عباس: الطائفة الرجل فما فوقه. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٦٢) أقوالاً كثيرة في تحديد عدد من يشهدون إقامة الحد. وقد قال قتادة: أي نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً.

بعد عَشْر سنوات، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة، وهذا يُضعِف الإحساس ببشاعة الجريمة.

ولذلك حرصَ المشرِّع الإسلامي على ألَّا تطولَ المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة وبين إنزال العقوبة، فعقاب المجرم في حُمُوَّة وجود الأثر النفسي عند المجتمع، يجعل المجتمع راضياً بعقاب المجرم، ويُذكِّر الجميع ببشاعة ما ارتكب، ويُوازِن بين الجريمة وعقوبتها.

لذلك ترى أن الناسَ إذا رَأَوا الظالم ثم لم يضربوا على يده، فإن اللَّه يَعُمُّهم بغضب من عنده؛ لأن الظالم يتمادَى في ظُلْمه وطُغْيانه ويُعربد في الآخرين، فيستشري الظلم في المجتمع ويحقّ على الجميع عقاب اللَّه[1].

ولذلك نجد أبا بكر رضي اللَّه عنه يبيّن لنا ذلك، فيقول:

أيها الناس أنتم تقرأون هذه الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ . . . ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وإنكم تضعونها على غَيْر موضعها، وإني سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول:

«**إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، يوشك اللَّه ـ عز وجل ـ أنْ يعمَّهم بعقابه**»[2].

ويُبيِّن لنا رسول اللَّه ﷺ هذا بمثال واضح يتفق عليه الكل، فيقول ﷺ:

«**مثل القائم على حدود اللَّه والواقع فيها كمثل قوم استهموا[3] على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خَرقْنا خُرْقاً في نصيبنا ولم**

---

(١) عن أبي بكر رضي اللَّه عنه قال: إنَّا سمعنا النبي ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم اللَّه بعقاب» أخرجه أبو داود في سننه (٤٣٣٨)، والترمذي في سننه (٢١٦٨، ٣٠٥٧)، وأحمد في مسنده (١/ ٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢، ٥، ٩)، وابن ماجه في سننه (٤٠٠٥) من حديث أبي بكر رضي اللَّه عنه.

(٣) استهموا: اقترعوا. أي: أجروا بينهم قرعة.

نُؤْذِ مَنْ فوقنا، فإنْ يتركوهم وما أرادوا هلكُوا جميعاً، وإنْ أخذُوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعاً»[1].

فالرسول ﷺ يضرب لنا المثَلَ بقوم ركبوا سفينة، وأجْرَوْا فيما بينهم القرعة لينقسموا إلى جماعتين، جماعة تجلس في النصف الأعلى من السفينة أيْ على سطحها، وجماعة تسكُن في بطن السفينة، حَسْب ما تأتي به قسمة القُرْعة، وهي ما يُسمَّى بالاستهام.

وهذا يدلُّنا على أنهم أُناسٌ طيِّبون، ولا تُوجد فيهم جماعة قوية تفرض شيئاً على جماعة ضعيفة، وكان الذين يسكنون أسفل السفينة حين يريدون الماء يصعدون إلى أعلى لينزلوا الأواني من فوق سطح السفينة إلى النهر.

ولو تُرِك الذين في أسفل السفينة لتنفيذ رغبتهم في خَرْق السفينة ليأخذوا الماء في النهر لَغَرِقتْ السفينةُ، لكن إنْ ضرب الذين يعيشون فوق السفينة على يَدِ مَنْ يريدون خَرْقها لَنَجْوا جميعاً.

إن ما يجعل الناس تتهاون في التعاون على البِرّ، ويجترئون على الإثم أنهم لا يجدون من مجتمعاتهم رَادِعاً، ولو وجدوا الرَّدْع من المجتمع لَحَمى المجتمعُ أفراده من الإثم.

وإنْ صار للمجتمع وَعْيٌ إيمانيٌ لَقاطعَ المخالفين وأشعرهم بأنهم منبوذون، وساعة يرى أمثالُ هؤلاء الناس أنهم منبوذون من المجتمع الإيماني فهُمْ يرجعون إلى المنهج الحق.

فما يُغري الناس على الجرائم الكبيرة إلا تهاونُ المجتمع في الجرائم الصغيرة، ولذلك يلفتنا الحقُّ سبحانه أنه لن يترك الأمر كما تركه بعضٌ من خَلْقه؛ لأن الخَلْق قد يُجامِلون، وقد لا يقفون أمام ما يفعله بعضهم من آثام، لكن الله شديد العقاب.

سيأتي عقاب الله في وقت ليس للفرد فيه جاهٌ من مال أو حَسَب أو نَسَب يحميه من الله، فإنْ أطمعك ضَعْف المجتمع في أن تظلم وأن تتعاونَ على الإثم ولا تنصر المظلوم، فعليك أنْ تخافَ الله، لأن عقابه شديد.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٦٩)، والبخاري في صحيحه (٢٤٩٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وكيف يأتي عقابُ اللَّه إلى المذنب؟

لا تعرف، لأننا لسنا آلهة، ونجد العقابَ يتسلَّل إلى المذنب في نفسه كمرض مؤلم لا يصرف الظالم والآثم فيه ما عنده من مال فقط، لكنه قد يسأل الناس ليعالج نفسه، أو يعالج مَنْ يحب.

وجنود عقاب اللَّه قد لا تتأخر للآخرة، بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أنْ يعرفها، وهذه هي شدة العقاب.

وهكذا يكون فَهْمُنَا لِقَوْل الحقّ تبارك وتعالى:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ولسائل أنْ يسألَ ويقول: إن العقاب يقع هنا على الظالم والمظلوم، والظالم هو الذي يستحق العقاب على ما وقع منه من ظُلْم، ولكن ما ذَنْب المظلوم؟

والجواب: أن المظلوم قد كان في مُكْنته أنْ يردَّ الظلم، لكنه سكت عن ذلك، فاستحق أنْ يشمله العقاب.

وإنْ لم تنتبه المجتمعات إلى مقاومة الظلم والظالمين، أنزل اللَّه بها العقاب، وعقاب الحقّ تبارك وتعالى أشدُّ من عقاب الخلق.

يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٥٢].

أي: أن اللَّه أقوى من كل ما تصنعون في كَوْنه، وعقابُه تعالى شديد وأليم، بسبب ذنوبهم، وما دام الحق ـ تبارك وتعالى ـ قد توعَّدهم بعقاب شديد، فهذا دليلٌ على شِدَّة ظُلْمهم.

ويقول تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢].

والأَخْذ هنا عقابٌ على العمل، بدليل أنه أنجى شُعَيْباً عليه السلام، وأخذ قومه بسبب ظُلْمهم، فالذات الإنسانية بريئة، ولكن الفعل هو الذي يستحقّ العقاب.

فَأَخْذُ اللَّه لهم كان بسبب ما ارتكبوه من ظُلْم وإفساد في الأرض، والإنسانُ حين يجد سُوءاً يُحيط به، وعذاباً أليماً يأتيه فهو يُحاول أنْ يفرَّ منه.

ولكن الحق سبحانه يقول:

﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢].

أي: أن قدرة اللَّه تعالى تُمسِك الظالم مسْكة مُحْكمة، فلا يستطيع فِرَاراً أو هروباً.

وكلمة «مُقْتدِر» تناسب شدة الأَخْذ.

وكلمة «عزيز» تعني أنه آمن من أنه لن يأتي أحدٌ يغلبه، فاللَّه حين يأخذ أحداً يأخذه أَخْذ عزيز لا يُغْلَب.

وهذا الأَخْذ من اللَّه ليس بَطْشاً أو جبروتاً، ولكنه أخذهم بذنوبهم، لأنه سبحانه عادلٌ ومُنَزَّهٌ عن الظلم.

ولذلك يقول تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ونعلم أن العقاب لا يعُمُّ الناس إلا بِقَدْر ذنوبهم، فليس معنى أن اللَّه شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب مَنْ فعل ذنباً بسيطاً، ولكن لِكُلٍّ جزاؤه على قَدْر ذنبه.

وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم؛ لأن العقاب من اللَّه إنما يحدث بقدرات اللَّه.

يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والأَخْذ دائماً يتناسب مع قوة الآخذ، فلو جذبكَ طفل فلن يُؤثِّر فيك، لكن لو جذبكَ شابٌّ قويٌّ سيُوقِعك على الأرض، فما بالُكَ بأَخْذ اللَّه القوي العزيز؟

إنه أَخْذ عزيزٍ مُقْتدِر.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ[1] وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

فالمؤمنون أُخرِجوا من ديارهم بغير ذنب أو جريمة ارتكبوها، وكان ذنبهم هو قولهم: «ربنا الله»، فكأن هذا ذنبٌ يستحقون عليه الإخراج من الدِّيار والتشريد.

وهذه ليستْ أوَّلَ سابقة في التاريخ يتعرَّض لها أتباعُ الحق، بل سبقهم أقوام كثيرون مثل أصحاب الأخدود[2] الذين قال القرآن عنهم:

﴿ وَمَا نَقَمُوا۟[3] مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨].

ومثل آل لوط الذين أخرجهم قومهم من قريتهم لأنهم كانوا مؤمنين طاهرين، وهم أنجاس متاكيد[4] كافرون معاندون.

قال تعالى:

﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦].

فهم نَقَموا من شيء كان يجب أنْ يمدحُوه، لأن الإيمانَ يُسوِّي حركة المجتمع، فلا يجعل أحداً يسرق من أحد، أو يعتدي على أحد، أو يظلم

---

(١) الصوامع: المعابد الصغار للرهبان. قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما.
البيع: هي أوسع من الصوامع وأكثر عابدين فيها وهي للنصارى أيضاً.
الصلوات: كنائس اليهود. وفي قول إنها كنائس النصارى. وفي قول آخر إنها معابد للصابئين. (راجع: تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٦).

(٢) الأخدود: الشق المستطيل في الأرض. وأصحاب الأخدود: هم قوم شقوا أخدوداً في الأرض وأضرموا فيه النار وألقوا المؤمنين فيه وأحرقوهم؛ لأنهم لم يقبلوا الرجوع عن إيمانهم بالله تعالى.

(٣) انتقم الشيء ونقم الشيء: أنكره. والنِّقمة: الإنكار. (لسان العرب ـ مادة: نقم).

(٤) النَّكَد: الشؤم واللؤم. وكل شيء جَرّ على صاحبه شراً فهو نكد. والنُّكْد والنَّكْد: قلة العطاء. (لسان العرب ـ مادة: نكد).

أحداً، أو يعتدي على ماله أو عِرْضه، أو حتى يذكُره بسُوء.

فهذا شيءٌ كان يجب أنْ يُحِبّوه ويُشجِّعوه، ولكنهم فَسدتْ طباعهم، فجعلوا المحبوب مكروهاً، وانصرفوا عَمَّا كان يجب أنْ يُقبِلوا عليه.

وذلك لأنهم كانوا ممَّنْ لا يؤمنون بيوم القيامة، وأن هناك بَعْثاً وحساباً وثواباً وعقاباً؛ لذلك تجدهم يُعربِدُون في الكون ويُفسِدون فيه.

والوَيْل للناس مِمَّنْ لا يؤمن بيوم القيامة، لأنه سيستشري فساده ويُسرِف على نفسه في المعاصي والمظالم، فالذي لا يؤمن بالآخرة لن يأتي منه خَيْر، وسيظلّ يُفسِد في الأرض، ويُعربِد في المجتمع.

فجعل اللَّه لهم عقاباً في الدنيا قبل الآخرة حتى يحمي اللَّه المجتمعَ من شُرورهم، فالذي لا يؤمن ولا يخشى عذابَ اللَّه في الآخرة يخاف مِمَّا قد يناله من عقاب الدنيا.

ولذلك يقولون: لا يموتُ ظالم في الدنيا حتى ينتقمَ اللَّه منه، ومن تمام انتقام اللَّه من الظالم أنْ يرى هذا الانتقام مَنْ ظلمهم هذا الظالم حتى يَشْفِي نفسه منه.

ولذلك لما قيل: إن بالشام ظالماً مات ولم ينتقم اللَّه منه، قال مَنْ سمع هذا الكلام: أنا لا أكذبها، ولكن غير معقول أنْ يموتَ ظَلُوم قبل أن ينتقم اللَّه منه، فلا بُدَّ أنه انتقم منه، ولكن الناس لم يعرفوا هذا الانتقام.

وهذا يدلُّنا على أن وراء هذه الدار داراً، يُعاقَبُ فيها المسيء بإساءته، وإلَّا فلا يمكن أنْ يترك اللَّهُ الظالمَ دون عقابٍ.

وقد مدح اللَّه تعالى المخبتين، وقال:

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

والمخبت هو المتواضع المنكسر الخاشع لكُلِّ أمر من أوامر اللَّه، لأن الذي لا يكون مُخْبِتاً يكون مُتمرِّداً مُتفرعِناً كأنه لم يشهد خالقه.

فالإنسان يتمرَّد ويتعالى حينما يجد نفسه أكبر من الذين حوله، فلو أنه استحضر جلال ربِّه لَخشع وتواضع، ولكنه غافلٌ عن العظمة الإلهية، فلا يرى إلا نفسه.

ولذلك يقولون: الإخباتُ نوعان:

ـ إخباتٌ للّه من خشوع وخضوع وطاعة لأوامر اللّه.

ـ وإخبات لِخَلْق اللّه، بحيث إذا ظلمه أحدٌ لا ينتقم منه، لأنه يعلم أنه إذا ظُلِم من مخلوق تعصَّب له الخالق.

انظر إلى أبنائك، إذا ظلم أحدهم الآخر، قلبُك سيكون مع المظلوم، فتُقرِّبه منك وتُراضيه، وتأخذ له حَقَّه وتعطيه ما يطلبه وتسترضيه، حتى أن أخاه يغارُ منه ويتمنَّى أنْ يكونَ هو الذي حدثَ له ذلك حتى يُقرِّبه أبوه ويعطف عليه.

كذلك الخَلْق كلهم عيالُ اللّه، وأحبُّهم إليه أرحمهم بعباده.

فالمخبِتُ حين يظلمه أحد يُفوِّض أمره إلى اللّه وهو مُطَّلِع على كل شيء، كما أن العبد إذا رَدَّ على الظلم سيردُّ بقوته الضعيفة، لكن لو تركها لقوة اللّه سيكون الردُّ مُناسِباً لقوته سبحانه.

وأحياناً يقع الظلم على إنسان، ويكون هو قد ظلم غيره من قبل.

ورب العزة سبحانه يقول في الحديث القدسي:

«يابْنَ آدم دعوتَ على مَن ظلمك، ودعا عليك مَنْ ظلمته، فإنْ شئتَ أجبْنَاك وأجبْنا عليك، وإنْ شئت أخَّرْتكُما إلى الآخرة فيسعُكُما عفوي»[1].

فالمخبت لا يصدر منه ظُلْم لأحد، وإن ظلمه أحدٌ يتركه للّه، لأنه يعلم أن اللّه سيكون معه.

ولذلك قُلْنا سابقاً: لو علم الظالم مَا أعدَّه اللّه للمظلوم من الكرامة لَضَنَّ عليه بالظُّلْم.

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ[2] وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

---

(١) أورده الغزالي في الإحياء (٣/ ١٨٣) من قول يزيد بن ميسرة أنه قال: إن ظللت تدعو على من ظلمك، فإن اللّه تعالى يقول: إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوي.

(٢) العرف: المعروف الذي تعارف الناس عليه وعرفوا أنه حسن.

اعلم أن الحق سبحانه وتعالى يحب من عبده المؤمن أن يكون هَيِّناً لَيِّناً مع إخوانه من المؤمنين، فإنْ عَزَّ عليه أخوه المؤمن فَلْيَهن له، فإنْ تعالى أو تعالَم أخٌ مسلمٌ عليك، فلا تَتعالَ عليه أو تتعالم حتى لا تقوم معركةٌ بينكما، بل تواضع أنت، ليزيدك اللّه رِفْعة وعِزّة.

وكأن اللّه سبحانه وتعالى يؤكد لك: إنك حين تعطي العفو تأخذ الخير من خلاله، فالظالم بظلمه يجعل اللّه في جانب المظلوم، ولذلك يحتاج الظالم إلى أنْ تُحسن إليه حيثُ كان سبباً في رعاية اللّه لنا، فنفعل معه مثلما فعل سيدنا حسن البصري[1] عندما قيل له:

إنَّ فلاناً اغتابك بالأمس.

ونادى سيدنا حسن البصري الخادم وقال له: جاءنا طبق من باكورة الرطب. اذهب به إلى فلان ـ وحدَّد للخادم اسم مَنْ اغتابه ـ وتعجَّب الخادم: كيف تبعث بالرطب إليه، وهو قد اغتابك؟

فقال: أفلا أُحسن إلى مَنْ جعل اللّه بجانبي. قُلْ له: يقول لك سيدي بَلَغَهُ أنك قد اغتبْته، فأهديْتَ إليه حسناتك، وهو أهداكَ رُطَبه[2].

وهذه درجة راقية من العمليات والانفعالات الشعورية، فالعمليات الشعورية التي تنتابُ الإنسان في التفاعلات المتقابلة يكون لها مواجيد في النفس تدفع إلى النزوع.

والعملية النزوعية هي رَدُّ الفعل لما تُدركه، فإنْ آذاك إنسان وأتعبك واعتدى عليك، فأنت تبذل جهداً لتكظم الغيظ، أي: أن تحبس الغيظ على

---

(١) هو: الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء والشجعان النساك، ولد بالمدينة ٢١هـ، ونشب في كنف علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، سكن البصرة، وكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، توفي بالبصرة عام ١١٠هـ عن ٩٠ عاماً.

(٢) أورده الغزالي في الإحياء (٣/ ١٥٤) أن رجلاً قال للحسن: إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال: قد بلغني أنك أهديت إليَّ من حسناتك، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

شدة، فالغيظ يكون موجوداً، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط.

وعلى المغتاظ أن يمنع نفسه من النزوع، وإن بقي الغيظ في القلب.

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ . . . ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

هذه مرحلة أولى، تتبعها مرحلة ثانية، هي:

﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ . . . ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فإذا كان المطلوب في المرحلة الأولى منْع العمل النُّزوعي، فالأرْقى من ذلك أنْ تعفو، والعفو هو أن تُخرج المسألة التي تغيظك من قلبك، وإنْ كنتَ تطلب مرحلة أرْقى من كَظْم الغيظ والعفو فأحسن إليه، لأن مَنْ يرتكب الأعمال المخالفة هو المريض إيمانياً.

إنه يحتاج منّا إلى كَظْم الغيظ، أو العفو كدرجة أرْقى، أو الإحسان إليه كمرحلة أكثر عُلُواً في الارتقاء.

إذن: فالحقُّ سبحانه وتعالى يبيح أن تردَّ الاعتداء بالمثل، ثم يُفسِح المجال لكظْم الغيظ فلا نعتدي، ولكن يظل السبب في القلب، ثم يرتقي بنا مرحلة أخرى إلى العفو، وأن نُخرجَ المسألة من قلوبنا، ثم يرتقي ارتقاءً آخر، فيقول سبحانه:

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ومَنْ فينا لا يرغب في حُبِّ اللَّه له؟

وقد يتساءل إنسان: كيف تطلب مني أن أُحسن إلى مَنْ أساء إليّ؟

والرد: أنت وهو لَسْتما بمعزل عن القيوم سبحانه، فهو قيوم ولا تأخذه سِنَة ولا نوم، وكل شيء مرئي له سبحانه، وكلاكما صنعة اللَّه، وعندما يرى اللَّه واحداً من صنعته يعتدي عليك أو ليسيء إليك، فسبحانه يكون معك ويُجيرك، ويقف إلى جانبك لأنك المعتدى عليه.

إذن: فالإساءة من الآخر تجعل الحق سبحانه في جانبك، وتكون تلك الإساءة في جوهرها هدية لك.

وعندما نتأمل المسألة نجد أن الذي عفا قد أخذ أكثر مما لو كان قد

انتقم وثأر لنفسه؛ لأنه إن انتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة، أما حين يعفو فإنه يجعل المسألة للّه، وقدرته سبحانه غير محدودة إنْ أراد أنْ يردَّ عليه.

وقد يردّ الحق سبحانه بأن يُرضي المعتَدى عليه بعطاء غير محدود.

هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظلوم العافي المحسن، وهو السميع العليم بكل شيء.

obeikandl.com

لا يَمْلأُ جَوف ابن آدَمَ إلا التُّرابُ

٣٠ ـ يقول رَبُّ العِزّة سبحانه في الحديث القُدْسي:

«إنَّا أَنزلْنا المالَ لإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، وَلَوْ كانَ لابْنِ آدمَ وادٍ لأَحبَّ أنْ يكُونَ إليه ثانٍ، وَلَوْ كانَ لَهُ واديانِ لأحبَّ أنْ يكُونَ إليهما ثالِثٌ، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا التُّرابُ، ثُمَّ يتُوبُ اللَّهُ على مَنْ تابَ»(١).

ما هو المال؟

إن المال هو كل ما يتموّل، إلا أننا نصرفه إلى شيء يمكن أن يأتي بكل مُتمول، وأسميناه بالنقد، وأصبحتْ له الغلبة، لأننا نشتري بالنقد كل شيء، لكن المعنى الأصلي للمال هو كل ما يتمول.

وكيف يجيء المال لك، أو لي، أو لأي إنسان؟

أخرجَ أحدٌ مِنّا من بطن أمه وهو يملك شيئاً؟

لا .. إن ما يملكه الإنسان يأتي إما من متحرك في الحياة قبلك، إنْ كان والدك أو جدّك، وإما من حركتك أنت.

والمتمول هو الذي يتحرك في الحياة حركة قد تكون لنفسه، وإن اتسعت حركته فستكون لأبنائه، وإنْ اتسعت أكثر فستكون لأحفاده.

والحق سبحانه يُفرّق بين مال يكتسبه الإنسان بجهده وكَدّه وتَعبِه، ومال آخر يرثه الإنسان.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢١٨) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٤٠) وعزاه لأحمد والطبراني. وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح. ونسبه العراقي في تخريج الإحياء (٣/ ٢٣٢) لأحمد والبيهقي في شعب الإيمان وصحح سنده.

obeikandl.com

يقول تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ[1] وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا[2] وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فاقتراف المال هو أخذها بجهد ومشقة وتعب، وهو غير المال الموروث الذي لم يتعب فيه صاحبه، وإنما ورثه عن غيره، وفي هذه الحالة يكون أمره هَيِّناً على صاحبه.

أما المال الذي كسبه الإنسان بعرق جبينه وكَدِّه، فصاحبه أكثر حِرْصاً عليه من المال الموروث.

والحق سبحانه يقول:

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

فهذه الأشياء زينةُ الحياة الدنيا.

ومعنى الزينة: الحُسْن غير الذاتي، فهناك حُسْن ذاتيّ في الجوهر، مثل المرأة الجميلة بطبيعتها بدون مساحيق أو أصباغ أو حُليّ، لأن حُسْنها ذاتيّ.

ولذلك تُسمَّى المرأة الجميلة غانية، لأنها استغنتْ بجمالها الذاتي في جوهرها عن أنْ تتزينَ بأيّ شيء.

يقول تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ[3] وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

---

(١) العشيرة: جماعة الرجل الذين يعتز بهم، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، أي: قومك. (القاموس القويم ٢/ ٢٢).

(٢) كسدت السلعة كساداً: بارت ولم تَرُج لقلة الرغبة فيها. قال تعالى: ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا . . .﴾ [التوبة: ٢٤].

(٣) الخيل المسومة المرسلة وعليها ركبانها. وهي أيضاً التي عليها السُّومة، وهي العلامة. (لسان العرب ـ مادة: سوم).

فهو سبحانه يقول للناس: خذوا الحياة على قَدْرها.

وزُيِّن يعني حسّن. فمن الذي حَسَّنها؟ لقد حسَّنها اللّٰه عز وجل، فكيف تنسى الذي حسَّنها لك، وجعلها جميلة وجعلها تحت تصرُّفك؟

كان يجب أنْ تأخذها وسيلةً للإيمان بمن رزقك إياها، وكلما ترى شيئاً جميلاً في الوجود تقول: «سبحان اللّٰه» وتزداد إيماناً باللّٰه، أما أن تأخذ المسألة وتعزلها عمَّنْ خلَقها، فذلك هو المقياس النازل.

أو: أن اللّٰه سبحانه وتعالى هو الذي زيَّنها بأنْ جعل في الناس غرائز تميل إلى ما تعطيه في هذه الحياة الدنيا، ونقول: هل أعطى سبحانه الغرائز ولم يُعْطِ منهجاً لتعلية هذه الغرائز؟

لا، لقد أعطى الغرائز، وأعطى المنهج لتعلية الغرائز، فلا تأخذ هذه وتترك تلك.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وعندما نتأمل الآية في مجموعها نجد أن مفاتيح كل شخصية تريد أنْ تنحرفَ عن منهج اللّٰه تجذب الإنسانَ لينحرفَ عن مُرادِ اللّٰه في منهجه، إنه سبحانه يطلب من عبده المؤمن أنْ يبني حركة حياته على مراد اللّٰه، فما الذي يجعل المؤمن يترك مراد اللّٰه من حكم لينصرف إلى حُكْم يناقضه؟

لا شكَّ أنه الهوى، والهوى هو الذي يُميل ويُزيغ القلوب، ولكل هوى مفتاحه، ولكل شخصية من المكلفين بمنهج اللّٰه مفتاح لهواه، فواحد مفتاحه النساء، وواحد مفتاحه البنون، يحب أن يرعاهم رعاية تفوق دَخْله من عمل أو صناعة مثلاً، فقد يسرق أو يرتشي ليسعد هؤلاء.

وأناس مفاتيحهم الشخصية في المال، أو في زينة الخيل، والعُدَّة والعتاد، فلكل شخصية مفتاح هوى.

والذين يدخلون على الناس ليُزيِّنوا لهم غير منهج اللّٰه يأتون لهم بالمفتاح الذي يفتح شخصياتهم، فربما كان هناك إنسان لا تُغريه نظرة المرأة أو ملايين

الذهب، إنما يتملكه حُبُّه لأولاده، وهو الهوى الغَلَّاب.

وهناك مَنْ يمتلكه حُبُّ المال، حتى إنه إذا كان يملك منه قنطاراً فإنه يطمع في الزيادة، مثلما يطمع مَنْ يملك ألف جنيه في أن يزيد ما يمتلكه ويصل إلى مليون جنيه.

لذلك قال سبحانه:

﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ . . . ﴾ [آل عمران: ١٤].

فالقناطير المقنطرة تعني الرغبةَ في المبالغة في الغِنَى.

ورسول الله ﷺ يقول:

«لو أن ابن آدم أُعطي وادياً ملآن من ذهب أحبَّ إليه ثانياً، ولو أعطي ثانياً أحبَّ إليه ثالثاً»(١).

أي: أن الإنسان الذي امتلك واديين يريد أن يحتفظ بالواديين كما هما، ويطمع في امتلاك الوادي الثالث، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار وادٍ واحد.

فالإنسان بطبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثير، لماذا؟ لأن كثيراً من الناس ينسوْنَ الآخرة، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء.

ولهذا تجد الإنسان منهم يريد أنْ يحتاطَ لنفسه، فإذا أخذ ما يكفيه يريد أنْ يحتاطَ لأولاده، فإذا كان عنده ما يكفيه هو وأولاده يريد أنْ يحتاطَ لأحفاده.

ولكن المؤمن الحق هو مَنْ يعرف أن الحياة الدنيا طريق العبور إلى الآخرة، وأنها رحلة قصيرة تنتهي، فلا يهتم بهذا اللون من الاحتياط، ولكن الذي يحرص على عملية الاحتياط هذه هو مَنْ يظن أن الحياة الدنيا هي الغاية من الخَلْق، ولا يتنبه إلى أنها وسيلة للآخرة.

إننا نجد أولئك الذين يسرفون على أنفسهم ويتبعون شهواتهم وهم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٤٨) كتاب الزكاة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

يحاولون أن يأخذوا من الدنيا كل شيء يمكن أنْ تُعطيه لهم حلالاً أو حراماً، وهذا واضح في سلوكهم الدنيوي.

أما المؤمن فهو كالطالب الذي يجدُّ في دروسه، ويجتهد ويستيقظ مبكراً ويذهب إلى المدرسة، ويظل ساهراً ليذاكر ويحرم نفسه من مُتَع كثيرة، لأنه بفطنته وذكائه يعرف أن هذا حرمانٌ مُؤقَّت.

وهو إنما يفعل ذلك لفترة قصيرة ليستريح بقية العمر، ويحصل على المركز المرموق والدَّخْل المرتفع إلى آخر ما يمكن أنْ يُعطيه له المستقبل.

أما المسرف على نفسه فهو كالطالب الذي لا يذهب إلى المدرسة، ويقضي وقته في اللعب والاستمتاع، وهو بمثل هذا السلوك كان قصير النظر، وأعطى لنفسه شهوةً عاجلة لِيظلَّ في مُعاناةٍ بقية حياته.

إذنْ: فكُلٌّ من الطالبيْن أعطى نفسه ما تريد.

الأول: أعطى نفسه مُستقبلاً مريحاً مُمْتداً، وصار قمةً من قِمَم المجتمع.

والثاني: أعطى نفسه متعة عاجلة زائلة، ثم صار بعد سنوات قليلة صُعْلوكاً في المجتمع لا يساوي شيئاً.

إذنْ: فإياك أنْ تنظرَ تحت أقدامك فقط، لأن العالم لا ينتهي عند موقع وقوف قدميْك هاتيْن، ولكنه مُمتدٌّ إلى آفاق بعيدة، فإذا نظرتَ إلى هذه الآفاق فلا يليقُ بك أنْ تختارَ متعة وَقْتية قليلة.

ولننظر إلى قول الله سبحانه عن الأشياء المزيَّنة:

﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ . . ﴾ [آل عمران: ١٤].

أي: أن الذي ينظر إلى هذه الأشياء المزيَّنة نظرة تقليدية سطحية سيجدها مجردَ متاعٍ، وما عمر هذا المتاع؟

إنه مَوْقوتٌ بالدنيا الفانية، ولنُسلِّم جدلاً أن شيئاً لن يسلبك هذه الأشياء وأنت حيّ، وأنها ستظلُّ معك طِيلَة دُنْياك، فما قيمة الدنيا وهي مُقَاسَةٌ بآلافِ السنين، والإنسان لا يعيش فيها إلا قَدْراً مُحدَّداً من الأعوام يُقرِّره الحقُّ سبحانه وتعالى.

إذنْ: فالدنيا تُقَاسُ بعمر الإنسان فيها، لا بعمر ذات الدنيا لغيره، لأن عُمْر الدنيا لغيرك لا يخصُّك.

إن الدنيا محدودة، ولا أحدَ يستطيع أنْ يستديمَ الدنيا، لذلك فلن يستطيعَ أحدٌ أنْ يستديمَ الخير؛ لأن عمره في الدنيا محدود.

والإنسان قد يبحث في عُمْر الدنيا ويقول: إنها تستمر عشرة ملايين من السنين، أو مائة مليون سنة، وقد لا يلتفت إلى أن عمره هو موقوتٌ في هذه الدنيا.

إذنْ: فالدنيا بالنسبة لك هي مقدار عُمرك فيها، لا مقدار عمرها الحقيقي إلى أنْ تقوم الساعة، وماذا تستفيد منها وهي تطول لغيرك؟

إن عُمر الدنيا بالنسبة للإنسان هو مقدار مُكْث الإنسان فيها، وهو مظنونٌ وغيرُ مُتيقن، وقد يموت وهو في بطن أمه، أو يموت وهو ابنُ شهر، أو ابنُ سنة، أو بعد أنْ يبلغَ المائة.

فالذي يرضى بغير المتقين قصيرُ النظر.

ولذلك انظر إلى القرآن وهو يقول:

﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِى الْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وحتى إنْ قِسْتَ عمر الدنيا من بَدْء الخلق إلى أنْ تقوم الساعة فهي إلى فناء، وما دامتْ إلى فناء فهي متاع قليل، ومَنْ يطمئن إلى هذا المتاع القليل فهو غافل.

وعلى الإنسان أنْ يعلم أنَّ الحق سبحانه لم يترك الإنسان على الأرض دون أنْ يُوفِّر له وسائل استمرار حياته، فالمطر ينزل من السماء، والسماء هي كل ما علاكَ فأظلّك، فينبت به الزرع والثمر، وهذا رِزْق لنا.

والناس تختلف في مسألة الرزق، والرزق هو ما يُنتفع به، وليس هو ما تحصل عليه، فقد تربح مالاً وافراً، ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه، فلا يكون هذا رزقك، ولكنه رِزْق غيرك، وأنت تظل حارساً عليه، لا تنفق منه قرشاً واحداً، حتى توصله إلى صاحبه.

والرزق في نظر معظم الناس هو المال.

قال ﷺ: «**يقول ابن آدم: مالي مالي.. وهل لك يابنَ آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، ولبستَ فأبليتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضيتَ**»[١].

هذا هو رِزْق المال، وهو جزء من الرزق، ولكن هناك رزق الصحة، ورِزقُ الولد، ورِزْق في الطعام، ورزق في البركة.

وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هي رِزْق، وليس المال وحده، وإنْ كان الإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها فيطمئن إلى حاضره ومستقبله.

لكن لنفرض أن المال دام لك طُولَ العمر، وأنت تعرف أن العمر مهما طالَ قصير، ولا بُدَّ أنْ يأتي يوم تفارق فيه هذا المال بالموت.

في هذه اللحظة يكون ما كنزتَ من المال قد صار إلى ورثتك، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقتَ في سبيل الله. أي: أن ما أنفقتَ هو ما يبقى لك في عالم الخلود، لا يفارقك ولا تفارقه.

إذنْ: فالذي يُحِبّ ماله عليه أنْ يصحبَ معه هذا المال لمدة أطول، وأنْ يتعدّى به مجرد الوجود في الدنيا، وأنْ يصل به إلى دار الخلود، ومَنْ يعشق المال ـ إذا أراد أنْ يُبقيه ـ فلينفقه في الصدقة.

ولنا الأُسْوة الحسنة في رسول الله ﷺ حين جاءته شاة كهدية، فقال للسيدة عائشة رضي الله عنها: «**تصدَّقي بلحمها**».

وكانت السيدة عائشة ـ رضوان الله عليها ـ تعرف أن رسول الله ﷺ يحب لحم الكتف، فتصدقتْ بلحم الشاة كلها، وأبقتْ قطعة من لحم الكتف لرسول الله ﷺ. وعندما عاد رسول الله ﷺ سألها: ماذا فعلت بلحم الشاة؟ قالت: تصدقت بها كلها وأبقيت كتفها. فقال: «**بل قولي أبقيتها كلها إلا كتفها**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٥٨) من حديث عبد الله بن الشخير. وتمامه: «أنه أتى النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾» الحديث.

(٢) حديث صحيح. أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٥٠) والترمذي (٢٤٧٠) وقال: هذا حديث صحيح. وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٣) عن عائشة رضي الله عنها.

obeikandl.com

وذلك لأن مَا تصدقتْ به السيدة عائشة رضي اللّه عنها هو الباقي، وما أبقته لهما هو الذي سيفنى، وهكذا سَمَّى رسول اللّه ﷺ الأشياء بحقيقة مُسمَّياتها.

فالذي يحب صُحْبة ماله في الدنيا والآخرة عليه أنْ يُقدِّم بعضاً منه صدقةً للفقير والمحتاج، لِيُبارك اللّه له في الدنيا، ويجزيه خَيْرَ الثواب في الآخرة.

وقد سأل رجلٌ الإمامَ علياً رضي اللّه عنه: أريد أنْ أعرفَ: هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟

قال الإمام عليٌّ كرَّم اللّه وجهه:

الجواب عندك أنت، لا عندي، انظر إذا دخل عليك مَنْ يعطيك، ودخل عليك مَنْ يطلب منك، أيهما تُرحِّب به وتقابله ببشاشة، أيهما تحب؟

إنْ كنتَ تحبُّ مَنْ يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة، وإنْ كنتَ تحب مَنْ يعطيك فأنت من أهل الدنيا، لأن مَنْ يأخذ منك يحمل حسناتك إلى الآخرة، وأما مَنْ يعطيك فيزيدك من الدنيا ولا يعطي آخرتك شيئاً.

ونقول للذي يحب المال: اجعل حُبَّك للمال يُبقيه لك فترة أطول من عمر الدنيا، فالدنيا ليست هي المقياس، ودنياك قَدْر عمرك فيها، أما الآخرة فأنت خالدٌ فيها، فتصدَّق ببعض مالك يكُنْ لك خيراً في الآخرة.

ويلفتنا القرآن الكريم إلى المنظور، وإلى المدخور، فيقول الحق سبحانه:

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٦].

ويقول سبحانه في آية أخرى:

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم: ٧٦].

إذن: لا بُدَّ أن تنظر إلى الباقيات في الأشياء؛ لأنها هي التي يُعوَّل عليها، ويلفتنا الحق سبحانه إلى هذا في أكثر من موضع من القرآن الكريم، فيقول تعالى:

﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٧].

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . . .﴾ [القصص: ٦٠].

إذن: فإياك أن تنظر إلى الذاهب، ولكن انظر إلى الباقي.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا . . .﴾ [التوبة: ١٠٣].

وسبحانه وتعالى هو واهب المال، وهو يحترم هِبَته لصاحب المال.

وقد لاحظ العلماء أن المال حين يُضاف إلى صاحبه فهو تطمين له، حتى يتحرك في الحياة حركة فوق ما يحتاج، ويبقى له شيء يتموله، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التي ينتفع بها الغير، وإنْ لم يقصد.

واللَّه سبحانه وتعالى هو صاحب المال، وهو يأتي بالمال، بالأسباب التي جعلها للبشر في حركة الحياة، وأمَّنهم على عَرَقهم. وأمَّنهم على ما يملكون، حتى لا يزهدَ أحدٌ في الحركة، فلو أخذ كل واحد من حركته على قَدْر نفسه، ولم يتملك المال، لَضنَّ الناس بالحركة.

وإذا ضَنَّ الناس بالحركة فلن يستفيد غير القادرين على الحركة، فأراد اللَّه سبحانه وتعالى أنْ يجعلَ ما يزيد على حاجات الناس مِلْكاً لهم؛ لأن النفس تحب أن تتملك.

والتملُّك أمر غريزي في النفس، بدليل أن اللَّه سبحانه هو الذي طلب أن يؤخذ من الأموال، وأوضح أنه يضاعفها له، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُنمّي فيه غريزة التملك.

وقول الحق سبحانه:

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم . . .﴾ [التوبة: ١٠٣].

السطحيون في الفهم يقولون: إنها تُطهِّر مَنْ تأخذ منه المال، وتُزكِّي المال الذي نأخذ منه، لكن مَنْ يملك عُمْقاً في الفهم يقول: ما دامت هناك في هذه الآية عناصر، فضروري أن يعود التطهير والتزكية عليها، وأنها تُطهّر وتُزكِّي المأخوذ منه صاحب المال، وكذلك تطهر وتزكي المال المأخوذ، وأيضاً تطهر وتزكي المأخوذ له وهو الفقير، لأن التطهير معناه إزالة قذر، والتزكية نماء.

وهكذا تُطهر الصدقة وتُزكّي عناصرَ الفعل كلها، والتطهير لمن يعطي، له معنى عام، والزكاة لها معنى معه، لأنك إنْ أخذتَ منه المال، فقد يكون قد غفل وأدخل في ماله شيئاً فيه شبهة، فالصدقة والزكاة تُطهّران هذا المال.

أما كيف تنمّي صاحب المال؟

أنت إنْ أخذتَ منه وهو قادر، معنى ذلك أنك تُطمئنه أنه إذا احتاج فستعطيه، وبهذا يعرف أنه لا يعيش في المجتمع بمفرده، ولا يخاف أنْ يضيع منه المال، واطمأن لحظة أنْ أخذتَ منه المال وهو قادر كي تُعطي المحتاج، فكأنك تطمئنه وتقول له: أنت لو احتجت فلن تضيع، وبذلك تُنمّي تواجده، وثِقته، وطُهرته أيضاً من أن يكون في ماله شبهة، هذا من ناحية صاحب المال.

أما من ناحية المال نفسه، فالصدقة تُطهّر المال، لأن المال قد يزيد فيه شيء فيه شبهة فالزكاة تُطهّره.

وقد يُخيَّل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص، عكس الربا الذي يزيد المال، فالرِّبا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً، أما المزكّي فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفاً.

والسَّطحيّ يرى أن الزكاة أنقصتْ المال وأن الربا يزيده، ولكن هذا بمقاييس البشر، لا بمقاييس مَنْ يملك الأشياء، فالزكاة التي تعتبرونها نقصاً تُنمّي، والربا الذي تعتبرونه يُنمّي إنما يُنقِص.

والحق سبحانه يقول:

﴿ يَمْحَقُ(١) ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى(٢) ٱلصَّدَقَٰتِ... ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وسبحانه يقول:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩].

---

(١) المحق: النقصان وذهاب البركة. ومحقه الله: أي ذهب خيره وبركته. (لسان العرب ـ مادة: محق).

(٢) ربا الشيء يربو: زاد ونما. وأربيته: نمّيته. (لسان العرب ـ مادة: ربا).

وكيف تكون الصدقة تطهيراً للآخذ، وهو لم يذنب ذنباً يحتاج إلى تطهير، بل هو مُعطىً له لأنه محتاج؟

ونقول: إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره، وهو عاجز عن الكَسْب فهو يتطهّر من الحقد على ذي النعمة، لأنه وصله بعضٌ من المال الذي عند ذي النعمة، فلا يحقد عليه ولا يحسده، فهو إنْ رأى عنده خيراً دعا له بالزيادة، لأن بعضاً من الخير يعود عليه.

هذا عن التطهير، فماذا عن التزكية والنماء؟

إن الفقير ساعةَ يرى نفسه فقيراً، ويرى أن المجتمع الإيماني يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً، ويتسابق أهل الخير لنجدته، فنفسه تنمو بالاطمئنان، لأنه في مجتمع إيماني.

والزكاة تُنقّي المجتمع من مفاسد كثيرة، فهي تمنع الحقد بين الناس، لأن الفقير إذا وجد مَنْ يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء، فلا يسخط الفقير على الغنيّ.

والغنيّ والفقير متساويان في الانتفاع؛ لأن الفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقير، ولكنه يُحِسّ بالعطاء حوله، والغني حين يعطي يُحِسّ أن هذا أمان له، لأنه إنْ ذهبتْ عنه النعمة فسوف يجد مَنْ يعطيه.

وهكذا يحدث توازن في المجتمع بين الناس، المجتمع الذي مكّن الله للمؤمنين فيه، مصْداقاً لقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ[1] فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ[2] وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

---

(١) مكّن له في الشيء: جعل له عليه سلطاناً وقدرة.

(٢) قال سيد قطب في تفسير «الظلال» (٤/ ٢٤٢٧): «الذين إن مكناهم في الأرض» فحققنا لهم النصر، وثبتنا لهم الأمر «أقاموا الصلاة» فعبدوا الله، ووثقوا صلتهم به، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين «وآتوا الزكاة» فأدوا حق المال، وانتصروا على شح النفس، وتطهروا من الحرص، وغلبوا وسوسة الشيطان، وسدوا خلة الجماعة، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج «وأمروا بالمعروف» فدعوا إلى الخير والصلاح، ودفعوا إليه الناس «ونهوا عن المنكر» فقاوموا الشر والفساد، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التي لا تبقي على منكر وهي قادرة على تغييره، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه.

إن المجتمع الذي يجد فيه غير القادر حاجته، هو مجتمع يملؤه الاطمئنان بالنسبة للقادر وغير القادر، ونحن نعلم أننا نعيش في دنيا أغيار، ولا يوجد مَنْ يدوم غِناه، أو مَنْ يدوم فَقْره، لأن دوامَ الحالِ من المحَال.

إنْ عاش الغنيّ في مجتمع متكافل يجد فيه الفقير حاجته فهو لن يخشى تقلبات الزمن؛ لأنه وهو الآن يعطي الفقير، إنْ أصبح فقيراً فسوف يجد مُقوِّمات حياته، والفقير إذا أغناه الله تعالى فسيذكر أنه كان يأخذ من الأغنياء، فيُبادر ليُعين الفقراء كنوعٍ من رَدِّ الجميل.

وبذلك يعيش المجتمع كله حياةً آمنةً، كما أن الحياة في مثل هذا المجتمع إنما تُهيئ الاطمئنان للناس على أولادهم وذريتهم، ذلك أن الأعمار بيد الله.

وعندما يُحِسُّ الإنسان بأنه إنْ مات وترك أولاداً صغاراً ضعافاً فسوف يتكفَّل المجتمع بهم، عندئذٍ يُحِسُّ بالأمان في حياته، ولكن إذا كان المجتمع قاسياً يضيع فيه حَقُّ اليتيم، فالأب يعيش غَيْرَ مطمئن على أولاده الصغار.

ولهذا نجد أن الحق تبارك وتعالى قد أمر بكفالة اليتيم[1]، ليعوضه عن أب واحد بآباء متعددين يَرْعَوْنَه، فيُحِسُّ الأب بالأمان، وتُحِسّ الأم بالأمان، ويُحِسّ الصغار بالأمان.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا[2]﴾ [النساء: ٩].

فتقوى الله تكون ضماناً في أن يكفل المجتمعُ اليتيمَ، فيدخل الأمن في قلب كل أب يخشى أنْ يموتَ وأولاده صغار.

إذن: فالاقتصاد الإسلامي مَبْنيّ على وجود حركة في الكون، ولا بد أن تكون هذه الحركة على قَدْر طاقة المتحركين، وليس على قدر

(١) وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ وأمته وهو الذي عاش يتيماً: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]، بل إن الله اعتبر من يَدع اليتيم أي يدفعه ويقهره، اعتبره مكذباً بالدين، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١، ٢].

(٢) السداد: الصواب وموافقة الحق والعدل والشرع لا خطأ فيه.

حاجاتهم، حتى يكون هناك فائض يأخذه غير القادر من المتحرك القادر.

واللَّه سبحانه يريد أنْ تُوجد الحركة في الكون؛ لأنه إنْ وُجِدَت الحركة في الكون انتفعَ الناس، وإنْ لم يقصد التحرُّك، وبعد ذلك فأيْن يذهب الذي يأخذه اللَّه منك؟

إنه يعطيه لأخ لك ولغيره، فما دام سبحانه يعطي أخاً لك وزميلاً لك من ثمرة ونتيجة حركتك، ففي هذا اطمئنانٌ وأمانٌ لك، لأن الغير سيعطيك لو صِرْت عاجزاً غير قادر على الكسب، وفي هذا اطمئنان لأغيار اللَّه فيه.

فإن جاءت لك الأغيار فستجد أناساً يساعدونك، وبذلك يتكاتف المجتمع، وهذا هو التأمين الاجتماعي في أرْقى معانيه.

أليس التأمين أن تُعطِي وأنت وَاجِد، وأنْ تأخذَ وأنت فَاقِد؟ إذن: فهذا كُلُّه من فَضْل اللَّه.

وقَوْل رَبِّ العِزَّة سبحانه في الحديث القدسي: «إنَّا أنزلنا».

فساعة نسمع قوله: «أنزلنا» نرى أن هناك مكانة عَلِية يَنْزِل منها شيء لمكانة أَدْنى، ومثل ذلك أمر معروف في الحِسّيات، وهو معروف أيضاً في المعنويات.

وقد يكون هذا الشيء غير موجود في السماء لينزل، ولكنه في الأرض ومع ذلك يقول فيه الحق سبحانه:

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . .﴾ [الحديد: ٢٥].

وهو إنزال؛ لأنه أمر من تدبير السماء، حتى وإن كان في الأرض.

والحق سبحانه لم يَقُلْ «أنزلنا» على الذهب أو الماس أو الفضة، أو أيّ معدن من المعادن النفيسة، ولكنه خَصَّ الحديد بهذه الصفة، لأن الحديد أداةٌ من أدوات نَصْر الدعوة إلى اللَّه تعالى.

فالإنزال معناه إرادةُ الكون، وإرادةُ الكون في كل كائن تكون من السماء، ولذلك فالشيءُ الذي لا ينزل من السماء ربُّنا قال عنه: إنه ينزل من السماء.

رغم أنف إبليس!!

٣١ ـ عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: قال إبليسُ: أي رَبِّ، لا أزَالُ أُغْوِي بَني آدم، مَا دَامَتْ أرْوَاحُهُم في أجْسادِهم.

فقال الربُّ عزَّ وَجلَّ:

«فَبعزَّتي وَجلالي لا أزَالُ أغْفِرِ لَهُمْ مَا استَغْفروني»[1].

يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ[2] ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۞ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ۞ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١١ ـ ١٥].

هذه هي قصة إبليس مع آدم، ذكرها الحق سبحانه في مواضع كثيرة من كتابه، ولكنها في كُلِّ موضع تأخذ لَفْتةً جديدة ولَقْطة جديدة، وقد جاءتْ قصة خَلْق آدم بكُلِّ جوانبها في القرآن سبْع مراتٍ؛ لأنها قصة بَدْء الخلق، وهي التي تجيب عن السؤال الذي يبحث عن إجابته الإنسان.

فالإنسان تلفَّتَ ليجد نفسه في كون مُعَدٍّ له على أحسن ما يكون، ولم يجئ الكون من بعد الإنسان، بل طرأ الإنسانُ على الكون، وظلَّ السؤال وارداً عن كيفية الخَلْق.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٩، ٤١، ٧٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ٣٣٢)، والحاكم في مستدركه على الصحيحين (٤/ ٢٦١) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبي في تلخيصه. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٧) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والطبراني في الأوسط، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى».

(٢) صَوَّره: جعل له صورة مُجسَّمة. وتصوَّر: تكوَّنت له صورة وشكل. (المعجم الوجيز ـ مادة: صور).

ولكن الحق سبحانه قد حسم هذا فقال:

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] ﴾ [الكهف: ٥١].

فالإنسان لا يدري كيف تَمَّ الخَلْق، ولا ما هي مراحله، إلا أن يخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى بها، فما دَامُوا لم يشهدوا خَلْق السماوات والأرض ولا خَلْق أنفسهم، فلا بُدَّ أن تأخذ ذلك عن اللَّه، فما يُنبئنا به اللَّه هو الحقيقة، وما يأتينا عن غير اللَّه سبحانه وتعالى فهو ضلال وزَيْف.

وقصة العَداء بين آدم وإبليس هي من هذا القبيل الذي يجب أن نأخذه عن اللَّه، فالحقُّ سبحانه أصدر أمره للملائكة ليسجدوا لآدم، ولا بُدَّ أن نعرفَ أن السجودَ لآدم هو إطاعةٌ لأمر اللَّه، وليستْ عبادةً لآدم.

فاللَّه سبحانه هو الذي أمر الملائكة بالسجود، ولم يأمرهم بذلك آدم، ولا يحقُّ له أنْ يأمرهم، فالأمر بالسجود هنا من اللَّه سبحانه.

مَنْ أطاعه كان عابداً، ومَنْ لم يُطِعْهُ كان عاصياً، ومَنْ رَدَّ الأمر على الآمر كان كافراً.

والأمر بالسجود لآدم لم يشمل الملائكة كلهم، بل خُصَّ به الملائكة الذين لهم مُهِمة مع آدم، هذه المهمة قد أوضحها الحق سبحانه في قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

وقوله سبحانه: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ[2] أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥].

إذن: هناك من الملائكة مَنْ سيُسجِّل على الإنسان أعماله، وكل قَوْل

---

(١) العضد: المعاون والمساعد والمعين. اعتضد به: استعان به وتقوّى. (المعجم الوجيز ـ مادة: عضد).

(٢) قال علي بن أبي طالب: المدبرات أمراً: الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره، وعن عبد الرحمن بن سابط قال: يدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل، وميكائيل، وملك الموت، وإسرافيل. فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود. وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات. وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح. وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر. (ذكر هذه الآثار السيوطي في الدر المنثور ٨/ ٤٠٥).

يقوله، وكل فِعْل يفعله، بل ويكتبون هذه الأفعال، ومنهم مَنْ يحفظه من الشياطين، ومنهم مَنْ يُنفِّذ أقدار اللَّه في الأرض.

هؤلاء جميعاً لهم مُهمة مع الإنسان، ولكن الأمر بالسجود لم يشمل أولئك الملائكة العَالين من حملة العرش وحُرّاس السماء وغيرهم ممَّنْ ليستْ لهم مُهمة مع الإنسان.

ولذلك عندما رفض إبليسُ السجودَ قال له اللَّه تعالى:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

والمقصود بالعالين: الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم، فليس للملائكة العالين عمل مع آدم؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لمن لهم عمل مع آدم وذريته، والذين يقول فيهم الحق سبحانه:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ[1] مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

والملائكة لا يعصُونَ اللَّه ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمرون.

وإنْ تساءل أحدٌ: ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضِمْن الحديث عن الملائكة؟

نقول: هَبْ أن فرداً مُختاراً من الإنس أو الجنّ التزم بمنهج اللَّه كما يريده اللَّه، فأطاع اللَّه كما يجب ولم يَعْصِ. أليستْ منزلته تكون مثل المَلَكِ، بل أكثر من المَلَكِ، لأنه يملك الاختيار؟

ولذلك كانوا يُسمُّون إبليس «طاووس الملائكة» أي: الذي يزهُو في مَحْضَر الملائكة، لأنه ألزمَ نفسه بمنهج اللَّه، وترك اختياره، وأخذ مراداتِ اللَّه فنفَّذها، فصارَ لا يَعْصي اللَّه ما أمره، ويفعل ما يُؤمر.

---

(١) أي: ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله. قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٠٣): «أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه، وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكاتبان».

وصار إبليسُ يزهُو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة، لكنه كان صالحاً لأنْ يُطيعَ، وصالحاً ـ أيضاً ـ لأنْ يَعْصى، ومع ذلك التزم، فأخذ منزلة متميزةً من بين الملائكة، وبلغ من تميّزه أنه يحضر حُضُور الملائكة.

فلما حضر مع الملائكة جاء البلاغُ الأول عن آدم في أثناء حضوره، وقال ربنا للملائكة:

﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِآدَمَ. . . ﴾ [الأعراف: ١١].

وكان أَوْلَى به أنْ يُسارع بالامتثال للأمر بالطاعة، لكنه استنكف[١] ذلك. وَهَبْ أنه دون الملائكة، وما دام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة، ألم يكُنْ من الأَجْدر به ـ وهو الأدْنى ـ أن يلتزمَ بالأمر؟ لكنه لم يفعل، ولأنه من الجن فقد غلبتْ عليه طبيعة الاختيار.

فسبحانه قد أمر الملائكة، وكان موجوداً معهم إما بطريق العُلُوّ؛ لأنه فَاقَ الملائكة وأطاع الله وهو مُخْتار فكانت منزلته عالية، وإما بطريق الدُّنُوّ؛ لأن الملائكة أَرْفع من إبليس بأصل الخِلْقة والجِبلّة، وعلى أيْ وَضْع من العُلُوْ والدُّنُوْ كان على إبليس أنْ يسجدَ.

ولكن إبليسَ قال في الردّ على ربّه:

﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال أيضاً: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١].

فمعصيةُ إبليسَ كانت في القمة، لأنه رَدّ الأمر على الآمر، وقال: لن أُطيعَ، ولن أَسْجُدَ لآدم لأنّي خَيْر منه، هو من طين، وأنا من نار، فكأنه لم يَرْضَ بحُكْم الله سبحانه وتعالى، وأراد أن يُعدِّله، وهذه معصية في القمة، جعلت الله ـ تبارك وتعالى ـ يطرد إبليسَ من رحمته، ويَصفه بأنه رجيم[٢].

فإبليس قد تأبّى على مَنْ حكَم بالحُكْم، ولذلك طرده الحق سبحانه من الجنة، وصار مَلْعوناً.

---

(١) استنكف من الشيء وعنه: أنف وامتنع. (المعجم الوجيز ـ مادة: نكف).

(٢) رجمه: لعنه أو طرده بالرمي بالحجارة، ومنه الرجيم، فعيل بمعنى مفعول، أي: ملعون بالقول أو مطرود مرميّ بالحجارة. (القاموس القويم ١/ ٢٥٨).

وإبليسُ ساعة رفضِه تنفيذَ أمر السجود كان يمتلئ بالكبر والغرور، ففي لحظة الكبر نسي إبليس كل شيء، واندفع في معصيته يملؤه الزَّهْو، وأصرَّ على المعصية رغم علمه أن اللَّه شديد العقاب.

والحقُّ سبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم، ولكن سأله ـ وهو يعلم أزَلاً أن إبليسَ قد امتنع باقتناع لا بقَهْر، ولذلك قال إبليس:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ . . .﴾ [الأعراف: ١٢].

فكأنَّ المسألة دارتْ في ذهنه لِيُوجدَ حيثيةً لعدم السجود، ولا يصحّ في عُرْفه الإبليسي أنْ يسجدَ الأعلى للأدنى، فما دام إبليسُ يعتقد أنه خيْر من آدم، ويظنّ أنه أعلى منه، فلا يصحّ أنْ يسجدَ له، وهو أعْلَى منه، لماذا؟

فهو اعتقد مُخْطِئاً أن النارَ لها عُلُوٌّ على الطين، وهذا خطأ؛ لأن الأجناسَ حين تختلف، فذلك لأن لكل جنس دَوْرَه، ولا يوجد جنس أفضل من جنس، فالنارُ لها مُهمة، والطين له مُهمة، فالنار لا تستطيع أن تُؤدِّي مُهمة الطين، فلا يمكن أنْ نزرعَ في النار.

إذنْ: فالخيريةُ تتأتَّى في الأمرين معاً، ما دام كل منهما يُؤدِّي مُهمته، ولذلك لا تَقُلْ: إن هذا خَيْر من هذا، إنما قُلْ: عَمَلُ هذا أحسنُ من عَمَل هذا، فكلُّ شيء في الوجود حين يُوضَع في منزلته المرادة منه يكون خَيْراً.

ولذلك أقول: لا تَقُلْ عن عود الحديد إنه عود مستقيم، وتقول عن الخطَّاف: إن هذا عُود أعوج؛ لأن مهمة الخُطَّاف تقتضي أن يكونَ أعوج، وعِوَجه هو الذي جعله يُؤدِّي مهمته، لأن الخيرية إنما تتأتى في مُتساوي المهمة.

ولكن إبليس قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ . . .﴾ [الأعراف: ١٢].

قالها للمعاندة، للكبر، للكفر، حين أعرض عن أمر اللَّه، وأراد أنْ يُعدِّل مراد اللَّه في أمره، وكأنه يُخطِّئ الحقَّ سبحانه في أمره، ويردّ الأمر على الآمر.

إذن: فالحقُّ سبحانه يُوضِّح للمخلوقين من العناصر: إياكم أن تفهموا أن

تميّزكم بعناصركم، إنني أقدر بطلاقة قدرتي أن أجعلَ الأدْنى يتحكّم في الأعلى، لأنها إرادة مَنْ عنصرَ العناصر.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

وكلمة (فاهبط) تشير وتدل على أن الهبوط أمر معنوي، أي: أنك لَسْتَ أهلاً لهذه المنزلة، ولا لتلك المكانة. هذا ما تدلُّ عليه كلمة (فاهبط)، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان.

والصَّغار هو الذُّل والهوان؛ لأنه قابلَ الأمرَ باستكبار. فلا بُدَّ أن يُجازى بالصَّغار. خرج إبليس من الجنة، وفقد منزلته ومكانته التي كانت له بين الملائكة، ولُعِن وطُرِد من رحمة الله إلى يوم الدين، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨].

وكان ذلك بسبب عدم امتثاله لأمر الله بالسجود لآدم، فصارت عداوة بينه وبين آدم؛ لذلك: طلب إمهاله وإنظاره إلى يوم الدين، فقال:

﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤].

فالإنظار طلب الإمهال، وعدم التعجيل بالموت، وقد طلبه إبليس لكي يَشْفي غليله من بني آدم وآدم؛ لأنه جاء له بالصَّغار والذلة والطَّرْد والهبوط؛ ولذلك أصرَّ على أنْ يجتهدَ في أنْ يُغوِي أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً.

ولذلك قال إبليس:

﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

والإغواء: إغراء بالمعصية. فكأن الشيطانَ يريد أن يدخل بمعصيته على الله، ونقول له: لا، إن ربنا لم يُغْوِ، لأن الحق سبحانه وتعالى لا يُغوِي وإنما يهدي، لأن الله لو خلقه مُرْغماً مَقْهوراً ما أعطاه فرصة أنْ يختارَ كذا أو يختارَ كذا، فقد خلقه على هيئة «افعل» و«لا تفعل» واختار هو ألّا يفعل إلا المعصية.

وقد بدأ إبليس بِغُواية آدم عليه السلام، فآدم عاش في جنة تعطيه مُقوِّمات حياته بلا تعب وبلا عمل، وكان في الجنة ألوف الأشجار تعطي كل

الثمرات، وهي حلال لآدم وحواء يأكلان منها ما يشاءان، ما عدا شجرة واحدة[١] حرَّمها الله عليهما.

وكانت هذه الشجرة هي بداية الخطيئة، بدأ إبليس يُغري آدم وحواء على المعصية.. كيف؟

حاول إقناعهما بأن عدمَ الأكل من هذه الشجرة.. سيحرمهما من خير كبير.. قال تعالى:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا[٢] وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

لقد همس الشيطان، وأوحَى لهما بأن الحق سبحانه أراد ألَّا تقربَا هذه الشجرة؛ لأن مَنْ يأكل منها يصير مَلَكاً أو خالداً، ولم يُمحِّص أي منهما كلمات الشيطان ليعرفَ أن كَيْده كان ضعيفاً واهياً وغبياً؛ لأنه ما دام قد عرف أن مَنْ يأكل من هذه الشجرة يصير مَلَكاً أو يبقى من الخالدين، فلماذا لم يخطف منها ما يجعله مَلَكاً أو خالداً؟

---

(١) اختلف العلماء في هذه الشجرة على عدة أقوال ذكرها ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٩):
- الكرم (العنب). قاله ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة.
- السنبلة. قاله ابن عباس أيضاً.
- البر (حب القمح) قاله ابن عباس أيضاً.
- النخلة. قاله أبو مالك.
- التينة. قاله مجاهد.
- الحنطة (القمح). زعمته اليهود.

قال ابن كثير: «فهذه أقوال ستة في تفسير هذه الشجرة. قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال: إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين. وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم إذا عُلم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم».

(٢) السوءة: ما يقبح إظهاره، وينبغي ستره. وجمعها سوءات. وهي العورات. (القاموس القويم ١/ ٣٣٤).

وفي هذا دَرْسٌ يُبَيِّن لنا أن مَنْ يُزيّن له ويتصدّى له أحد بالإغواء يجب عليه أنْ يُمحّص إلى أيّ غواية يسير، وأنْ يُدقّق في نتائج ما سوف يفعل.

وفي إغواء آخر لآدم:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى[1]﴾ [طه: ١٢٠].

وهكذا تعرف أن إبليس يأتي للإنسان من أكثر من زاوية؛ لذلك كانت الزاوية الأولى هي أن هذه الشجرة، مَنْ يأكل منها يكون مَلَكاً، أو يكون خالداً.

وكان الإغواء الثاني أن هذه الشجرة تعطي لمن يأكل منها بجانب الخلود مُلكاً لا ينتهي.

إذن: فإبليس يُصوّر للإنسان أن ما منعه الله عنه هو الخير، وأنه لو عصى فسيحصل على المال والنفوذ، لقد أكل آدم وحواء من الشجرة، فلم يخلدا ولم يَأتِ لهما مُلْك لا ينتهي، بل ظهرت عوراتهما وعرفا أن إبليس كان كاذباً، وأن الله سبحانه وتعالى بمنهجه وما ينهانا عنه إنما كان يريد لهما الخير.

ولكن الشيطان يأتي ويُزيّن للإنسان طريق الباطل، ولو أن آدم كان قد حَكّم عقله لعرف كذبَ وَسْوسة إبليس، فإبليس كما يَدّعي كان يدلُّ آدمَ على شجرة الخُلْد، ولو أن هذه الشجرة كانت تعطي الخُلْد فعلاً، لما طلبَ إبليسُ من الله تبارك وتعالى أن يُبقي على حياته إلى يوم القيامة، بل لأكلَ من الشجرة ونال الخُلْد.

ولكن إبليسَ دخل من ناحية الغفلة في النفس البشرية ليُوقع آدمَ في المعصية، وهو يدخل إلى أبناء آدم من ناحية الغفلة أيضاً، ولو أن أبناء آدم حكّموا عقولهم وهم يعرفون أن هناك عداوة مُسْبقة بين آدم وإبليس، وأن إبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أنْ يُبقيَه إلى يوم القيامة لينتقمَ من آدم وأولاده بإغوائهم على المعصية.

---

(١) بلي الثوب: رثّ. وبليت الدار: فنيت. (المعجم الوجيز ـ مادة: بلى) وبلي الملك: زال.

لو تنبَّهنا إلى ذلك لأخذنا حِذْرنا، وعندما تنكشف وسوسة الشيطان فإنه يهرب.

وقد دخل إبليس ناحية الغواية بأن أقسم بعزة الله، وأن الله عزيز لا يحتاج لخلْقه، ولا يضرُّه سبحانه وتعالى مَنْ كفر، ولا يزيد شيئاً في مُلْكه مَنْ آمن، استغلَّ إبليسُ عِزَّة الله في استغنائه عن خَلْقه، فقال كما يروي لنا القرآن الكريم:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

فإبليس دخل إلى غواية بني آدم بِعزَّة الله سبحانه وتعالى عن خَلْقه، فلو أن الله أراد خَلْقه جميعاً مهديِّين ما استطاع إبليس أنْ يتقدَّم ناحية واحد منهم.

فالله سبحانه وتعالى هو الذي أعطى للإنسان حَقَّ الاختيار، ولو شاء لجعله مَقْهوراً على الطاعة كباقي الخَلْق من نقطة الاختيار هذه.

ويقول الحق سبحانه:

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] [الكهف: ٢٩].

إذنْ: فاللهُ سبحانه وتعالى بيَّن لنا طريقَ الهدى وطريقَ المعصية، ثم ترك لَنا أنْ نختارَ طاعةَ الله ورحمته، أو معصية اللهِ وعذابَه.

ولكي نتقي الشيطانَ في حياتِنَا شرحَ لنا القرآنُ الكريم كيف سَيُغوي إبليس بني آدم:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ[2] لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥/ ٤١٢٣): «قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس، من ربكم الحق، فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال، يهدي من يشاء فيؤمن، ويضل من يشاء فيكفر، ليس إليّ من ذلك شيء، فالله يؤتي الحق من يشاء وإن كان ضعيفاً، ويحرمه من يشاء وإن كان قوياً غنياً، ولست بطارد المؤمنين لهواكم، فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا، وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد. أي: إن كفرتم فقد أعد لكم النار، وإن آمنتم فلكم الجنة».

(٢) عن سبرة بن أبي الفاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك. قال: فعصاه وأسلم. قال: وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس =

أي: أن إبليس لا يجتهد في إغواء مَنْ باع نفسه للمعصية، وانطلق يخالف كُلّ ما أمر به الله، فالنفس الأمّارة بالسُّوء لها شيطانها، وهي ليستْ محتاجة إلى إغواء؛ لأنها تأمر صاحبها بالسوء.

ولذلك، فإن إبليس لا يذهب إلى الخمارات وبيوت الدعارة، ويبذل جَهْداً في إغواء مَنْ يجلسون فيها؛ لأن كل مَنْ ذهب إلى هذه الأماكن هو من شياطين الإنس.

ولكن إبليس يذهب إلى مهابط الطاعة وأماكن العبادة، هؤلاء يبذل معهم كل جَهْده وكل حِيَله ليصرِفَهم عن عبادة الله، ولذلك لا بُدَّ أن نتنبه إلى أن إبليسَ لم يقُلْ: لأقعدنَّ لهم على الطريق المعْوَج، فالطريق المعْوَج بطبيعته يتبع الشيطان.

فإبليس يريد أهل الطاعة، يُزيّن لهم المعصية، ويُغرِيهم بالمال الحرام، وما دام الشيطان سيُغوي وسيُضِل الغير فسيختار للغواية مَنْ يكون في طريق الهداية، أما مَنْ غوى باختياره وضَلَّ بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريده.

وتلك ظاهرة تحدثُ للناس حينما يجِدُّون ويجتهدون في الطاعة، فالشابّ الطائع الملتزم يحاول الشيطانُ أنْ يُخايلَه ليصرِفه عن الصلاة والطاعة؛ لأن الشيطانَ يتلصَّصُ على دين الإنسان، فهو كاللصّ، واللصُّ لا يحوم حول بيت خَرِب، إنما يحوم اللصُّ حول بيت عامر بالخير.

إننا نلاحظ هذه المسألة في كل الناس حينما يأتون للصلاة، فيقول الواحد منهم: حينما أُصلّي يأتي لي الوسواس، ويُشكّكني في الصلاة، نقول له: نعم، هذا صحيح[1].

= والمال فقال: تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال. قال: فعصاه وجاهد». أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٤٨٣) والنسائي في سننه (٦/ ٢١) وابن حبان (١٦٠١ ـ موارد الظمآن) من حديث سبرة بن أبي الفاكه.

(١) «عليك رحمك الله أن تحضر قلبك في صلاتك جهد استطاعتك ومبلغ طاقتك، وألا تصرفه هاهنا ولا هاهنا، وألا تمر به هكذا ولا هكذا، وأن تدفع عنه الخواطر الماثلة به، والأحاديث الشاغلة له، وأن تسمع ما تقرأ، وتعقل ما تفعل، فإنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت، ولا يكتب لك منها إلا ما فيه حضرت» قاله أبو محمد عبد الحق بن الخراط =

وحين يأتي لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحيحة في الإيمان، لأن هذا معناه أن الشيطان يعلم أن عملك مقبولٌ؛ ولذلك يحاول أنْ يُفسِدَ عليك الطاعة، لأنك لو كُنْتَ فاسداً من البداية، ووقفتَ للصلاة دون وضوء لما جاءك الوسواس، ولكن الشيطانَ يريد أن يُفسِد عليك الطاعة.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ (١) مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

فمعنى (استعذ) أي: فالتجئ منه إلى الله؛ لأن الله الذي أعطاه الخاصية في أنْ يتغلغلَ فيك، وفي دمك(٢)، وفي خواطرك، وهو القادر على منْعه.

وحين تقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» بفزع والتجاء إليه ـ سبحانه ـ فإنه جَلَّ شأنهُ ينقذك منه، وإنْ كنتَ تقرأ القرآن، ثم جاء لك الخاطر من الشيطان فقُلْ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فإذا قُلْتَ هذا فكأنك نبَّهتَه إلى أنك أدركتَ من أين جاءتْ هذه النَّزْغة: مرة واثنتين وثلاثة.

حينئذٍ يقول الشيطان لنفسه: إن هذا المؤمن حَاذِق فَطِن وحَذِر، لا أستطيع غوايته، ولأبحث عن غيره.

ولذلك رأينا الإمام أبا حنيفة، وقد شُهِر عنه الفُتْيا، وذهب إليه سائل يقول:

ضاع مِنِّي مال في أرضٍ كنتُ قد دفنتُه فيها، ولا أعرف الآن مكانه، دُلَّني عليه أيُّها الشيخ؟

= الإشبيلي في كتابه «الصلاة والتهجد» من تحقيقي (عادل أبو المعاطي) ـ طبعة دار الوفاء ـ المنصورة ١٩٩٢م.

(١) نزغ الشيطان: وساوسه ونَخْسُه في القلب بما يُسوّل للإنسان من المعاصي. قال الزجاج: معناه إن نالك من الشيطان أدنى نزغ ووسوسة وتحريك يصرفك عن الاحتمال، فاستعذ بالله من شرّه وامْضِ على حكمك. (لسان العرب ـ مادة: نزغ).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم».
قال النووي في شرحه: «قال القاضي وغيره: قيل هو على ظاهره، وأن الله تعالى جعل له قوة وقدرة على الجري في باطن الإنسان مجاري دمه. وقيل: هو على الاستعارة، لكثرة إغوائه ووسوسته، فكأنه لا يفارق الإنسان كما لا يفارق دمه. وقيل: يلقي وسوسته في مسام لطيفة من البدن فتصل الوسوسة إلى القلب. والله أعلم».

وبطبيعة الحال، كان هذا السؤال في غير العِلْم، فقال أبو حنيفة: يا بُنيّ ليس في ذلك شيء من العلم، ولكنّي أحتال لك، إذا جاء الليل فَقُمْ بين يديْ ربِّك مُصلِّياً هذه الليلة، لعلّ اللَّه سبحانه وتعالى يبعث لك جُنْداً من جُنوده يقول لك عن مكان مالك.

وبينما أبو حنيفة يؤدي صلاة الفجر، وإذا بالرجل يُقبل ضاحكاً مُبتسماً قائلاً: يا إمام لقد وجدتُ المال. فضحك أبو حنيفة وقال: واللَّه لقد علمتُ أن الشيطان لا يدعك تُتِمّ ليلتك مع ربِّك، وسيأتي ليُخبرك، فهلَّا أتممتها شُكْراً للَّه، هيا قُمْ إلى الصلاة.

إذن: فقد عرف الشيطان كيف يقعد، وكيف يُقسِم، فقد استطاع أنْ يأتي بالقسم الذي يُعينه على مهمته، فقال:

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

واستدرك على نفسه أيضاً، فقال:

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣].

لأن الذي يُريده اللَّه مَهْدياً لا يستطيع الشيطان أن يُغويه، لأنه لا يناهض ربّنا ولا يُقاومه، إنما يناهض خَلْق اللَّه، ولا يدخل مع ربِّنا في معركة، إنما يدخل مع خَلْقه في معركة، ليس له فيها حُجّة ولا قوة؛ لأن الذي يغلب في المعارك إما أنْ يُرغِمك على الفِعْل، وإما أن يُقنعك لتفعلَ أنت بدون إرغام.

وهل يملك إبليس واحدة من هذه؟

لا، ولذلك سيأتي في الآخرة يقول:

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

والشيطانُ لا يترك سبيلاً إلا سلكه لإغواء بني آدم، لذلك يقول: «**أي رَبِّ، لا أزال أُغْوي بني آدمَ، ما دامتْ أرواحُهم في أجسادهم**».

والقرآن الكريم يحكي لنا قوله:

﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].

فإبليس يأتي لبني آدم من الأمام، ومن الخلف، ومن اليمين، ومن اليسار.. أربع جهات يأتي الشيطان لابن آدم منها.

* والشيء الذي أمام العالم كله، ونسير إليه جميعاً هو «الدار الآخرة»، وحين يأتي الشيطان من الأمام فهو يُشكِّكهم في حكاية الآخرة، ويُشكِّكهم في البَعْث، ويحاول أن يجعل الإنسان غير مُقبل على منهج الله، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله، ويشكّون في وجود دارٍ أخرى، سيُجازى فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

ولذلك يعرض الحق سبحانه وتعالى قضية البعث عَرَضاً لا يجعل للشيطان مَنفذاً فيها، فيُوضِّح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خَلْقنا أوّلاً، لذلك لن يعجز عن إعادتنا، والإعادة بالتأكيد أهون من البداية؛ لأنه سيعيدهم من موجود، لكن البداية كانت من عدم[1].

إنه سبحانه عندما يُبين للناس أن الإعادة أهونُ من البداية، فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره، وإلّا فالله ـ جَلَّ شأنه ـ تستوي لدى طلاقة قدرته كُلُّ الأعمال، فليس لديه شيء سهل وهيّن، وآخر صَعْب وشاقّ.

* والشيطان يأتي ـ أيضاً ـ من الخلف، وخلف كل واحد منا ذريته، يخاف ضَيْعتهم، فيُوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء.

وفساد أُناسٍ كثيرين يأتي من هذه الناحية، ومثل هذا الفساد يأتي حين يبلغ بعض الناس منصباً كبيراً، وقد كَبِرت سنّه، ويقبل على الله بشرٍّ، ويظن أنه يترك عياله بخير. لكن، إنْ كنتَ تخاف عليهم حقّاً فأمِّن عليهم في يَدِ ربِّهم، ولا تُؤمِّن حياتهم في جهة ثانية.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

* ويأتي الشيطان من اليمين لِيُزهِّد الناس، ويَصْرِفهم عن العمل الحسن

---

(١) قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ويقول تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، قال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هينة. ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٠).

والطاعة، واليمين رمز العمل الحسن؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين.

* ويأتي الشيطان عن شمائلهم، ليُغريهم بشهوات المعصية.

ولماذا لم يَأتِ الشيطانُ للإنسان من فوق ومن تحت؛ لأن الفوقية هي الجهة التي يلجأ إليها مُستغيثاً ومُستجيراً بربه، والتحتية هي جهة العبودية الخاصة، فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد[1]، فهو في هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥].

ويقول أيضاً:

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وما دام الشيطان عدو لك، فلا بد أيها الإنسان أن تتنبه، فالله عمل لك حادثة الامتناع عن السجود لآدم حتى يُربي فيك مناعة من الشيطان، فتتذكر عداوته، ولا تتبع خطواته أبداً، بدليل أنه تربَّصَ ببني آدم.

قال تعالى:

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ[2] ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢].

وكلمة (لأحتنكن) الاحتناك له مَعْنَيان:

الأول: الاستئصال. ومنه قولهم: احتنكَ الجرادُ الزَّرْع أي استأصله.

الثاني: وهو القَهْر على التصرف، وهو مأخوذ من معنى اللجام الذي يُوضع في حَنَك الفرس أو الحمار، ويتحكم فيه، وعن طريقه يتم توجيهه يميناً أو شمالاً، أو توقيفه عن السَّيْر.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء». أخرجه مسلم في صحيحه (٤٨٢) كتاب الصلاة.

(٢) احتنك فلاناً: استولى عليه واستماله إليه. وقول الشيطان فيما رواه رب العزة في قرآنه: ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢]، أي: لأملكن أمرهم وأستولي عليهم فلا يعصون أمري. (القاموس القويم ١/ ١٧٥).

فالاحتناك إما أن يكون استئصالاً للذات، أو قَهْراً لحركتها، ولكن لأن إبليس يعلم حَجْمه وقَدْره، فكما أقسم بعزة الله تذكَّر قدرته سبحانه، وأنه إذا أراد إخلاص عبدٍ لنفسه لا يستطيع الشيطان أنْ يأخذه، فقال:

﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢].

وهذا القليل هم الذين أخلصهم الله لعبادته وطاعته، فلا يستطيع الشيطان أنْ يقرَبهم، وقد أقرَّ الشيطانُ بذلك.

وقال له الحق سبحانه:

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٣].

اذهب، أي: مطروداً مُبْعداً، فالذين ستأخذهُم وتحتنكُهم وتتصرف في حركتهم فإن جهنم جزاؤكم، أي هم والشيطان لأنه معهم، لكن إبليس كان يظنُ أن الله سيقول له: فإن جهنم جزاؤهم، وهو ليس معهم، لماذا؟

قال: لأنني أُنفِّذ أوامر الله، لأنه قال لي:

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ (١) عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ (٢) وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٤].

حتى لا يظن إبليس أنه مأمور من الله بالإغواء قال الحق سبحانه:

﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٣].

أي: أن إبليس سيدخلُ النارَ معهم؛ لأن مَا يقوم به من إغواءٍ لم يأمره به أحد؛ لأن الأمر كما قُلْنا طلب أعلى من أدنى ليوقع فعلاً أو يُنفذه، فلا يظنّ إبليس أنه ينفذ أوامر الله بإغواء عباده، بل يجب أن يعلم أن هذه ليست أوامر، ولكنها تهديد من الله له بأن يفعل ما في وُسْعه، فلن يكون في مُلْك الله إلا ما أراد.

فيقول له الحق سبحانه:

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . . ﴾ [الإسراء: ٦٤].

---

(١) أجلب عليهم: اجمع عليهم وتوعَّدهم بالشر. (لسان العرب ـ مادة: جلب).

(٢) رجل يرجل: مشى على رجليه ولم يكن له ما يركبه. والمقصود: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤]، أي: بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين. (القاموس القويم ١/ ٢٥٧).

أي: استخفّهم واخْدَعْهم ووَسْوِس لهم بصوتك، أو بكُلّ صوت شرير، سواء كان من جنودك أو من شياطين الإنس.

ومعنى (أجلب): أي صِحْ بهم. والجلبة هي الصوت الشديد، هذا الصوت يأخذ شيئاً من انتباه الخَصْم، فيضعف تدبيره لحركة مضادة، فتستطيع أن تنقضّ عليه.

فمعنى (أجلب عليهم بخيلك) أي: اركبْ خيلك، وأطلِقْ صوتك، حتى تُفزعهم، والإقزاع يأخذ جزءاً من الإدراك، فيعطل الخصم عن الإدراك فتغلبه.

فالحق سبحانه هدَّدَ إبليس بأن يستفزّ الناس بصوته، وأن يجلب عليهم بخَيْله ورَجْله، أي سلاح الفرسان، وسلاح المشاة. ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ . . . ﴾ [الإسراء: ٦٤].

ومعنى مشاركة الشيطان لهم في الأموال هي أنْ يُزيّن لهم المال الحرام، فيكسبوه من حرام ويَصْرفوه في الحرام.

وكذلك مشاركته لهم في الأولاد تكون بتزيين الفاحشة، فالولد المفهوم فيه طهارة النسب يأتي الشيطان لأبيه ويُزيّن له الحرام، فيجعله يرتكب الفاحشة.

وحتى إن كان ابنه من صُلْبه ومن حلال، ومولود على الفطرة يُزيّن له الشيطان أنْ يُهوّده أو يُنصّره، أو يجعلهم يقتلون أولادهم، خشية الفقر أو العار.

وليعلم بنو آدم أن إبليس سيقف في يوم المحاجّة يوم القيامة أمام الذين أغواهم واستفزّهم بصوته، وأجلب عليهم بخيله ورَجْله وشاركهم في الأموال والأولاد ووعدهم، يأتي يوم القيامة ويقول لهم ما رواه القرآن الكريم في قول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَآ أَنتُم

(١) الصارخ والصريخ: المستغيث. الاستصراخ: الاستغاثة والإغاثة. والصريخ: المغيث والمستغيث. (لسان العرب ـ مادة: صرخ).

بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فالشيطان يحاول أن يُبرِّئ نفسه رغم عِلْمه أنه قد وعد، وهو لا يملك إنفاذ ما وعد به، لذلك يحاول أنْ يُلصِق التهمة بمَنِ اتبعوه.

فهم قد أشركوه مع الله في الطاعة، حين استسلموا لِغوايته، ولم يكونوا من عباد الله المخلصين الذين أقسم بعزة الله ألا يُغويَهم، وكُلٌّ من هؤلاء نَفَّذ ما أغواهم به، فناداهم واستجابوا، وناداهم الله فَعَصَوا أو كفروا، وصاروا مثله، فقد سبق أن أمره الله وعصاه.

لذلك كان قول الحق سبحانه:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا(١) إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ(٢) مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وهذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يُخرجنا من جنة التكليف، كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة.

توبة الله على آدم:

ولكن الله عز وجل الرحيم بعباده أعدَّ للمذنبين منهم مغفرة لذنوبهم، وشَرَع التوبة للعُصَاة، وكان أول مَنْ تاب عليه هو آدم عليه السلام، فقال تعالى:

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ(٣) رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

إن بعض الناس يقول: إن آدم قد عصى وتابَ الله عليه. وإبليس قد عصى فجعله الله خالداً في النار.

نقول: إنكم لم تفهموا ماذا فعل آدم؟

---

(١) السوءة: ما يقبح إظهاره وينبغي ستره. أي: يغطي عوراتكم ويسترها. (القاموس القويم ١/ ٣٣٤).

(٢) القبيل: الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون وكلها تناسب قوله تعالى: ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٩٢]، معك ليؤيدوك. (القاموس القويم ٢/ ٩٨).

(٣) اجتباه: اختاره واصطفاه. (لسان العرب ـ مادة: جبى).

إنه أكل من الشجرة المحرَّمة، وعندما علم أنه أخطأ وعصى لم يُصِرّ على المعصية، ولم يَرُدّ الأمر على الآمر، ولكنه قال: يا رب أمرك ومنهجك حق، ولكنني لم أقدر على نفسي فسامحني.

اعترف آدم بذنبه، واعترف بضعفه، واعترف بأن المنهج حَقٌّ، وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى، ولكن إبليس رَدّ الأمر على الآمر، قال:

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦].

وقال: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦].

وقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وقال: ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢].

فإبليس هنا رَدَّ الأمْر على الآمِر، ولم يعترف بذنبه.

فإيَّاك أنْ تردَّ الأمر على الله سبحانه وتعالى.

فإذا كنتَ لا تصلي، فلا تَقُلْ: وما فائدة الصلاة؟

وإذا لم تكُنْ تزكّي.. فلا تَقُلْ: تشريع الزكاة ظلم للقادرين.

وإذا كنتَ لا تطبق شرع الله... فلا تَقُلْ: إن هذه الشريعة لم تَعُدْ تناسب العصر الحديث.

فإنك بذلك تكون قد كفرت والعياذ بالله، ولكن قُلْ: يا ربي إن فَرْضَ الصلاة حَقٌّ، وفَرْض الزكاة حَقٌّ، وتطبيق الشريعة حَقٌّ، ولكنني لا أقدر على نفسي، فارحم ضعْفي يا ربّ العالمين.

إنْ فعلتَ ذلك تكُنْ عاصياً فقط.

وقد يقول قائل: ما دام الحق سبحانه شرع التوبة، فلأفعلْ ما أريد من المعاصي، وبعد ذلك أتوب.

نقول له: إنك لم تلتفتْ إلى الحكمة في إبهام ساعة الموت، فما الذي أوحى لك أنك ستحيا إلى أنْ تتوبَ؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية.

وعليك أنْ تلتفتَ إلى دِقّة النصّ القرآني:

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ[1] ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧].

فهناك مَنْ يفعل المعصية، ويُخطِّط لها، ويفرح بها، ويُزْهَى بما ارتكب، ويفخر بزمن المعصية.

وهناك مَنْ تقع عليه المعصية، وبمجرد أن تنتهي يظل نادماً، ويضرب نفسه ويُعذِّبها ويتساءل: لماذا فعلت ذلك؟

وأضرب مثلاً للتمييز بين الاثنين، نجد اثنين يستعد كل منهما للسفر إلى باريس، واحد منهما يسأل قبل سفره عن خبرة مَنْ عاشوا في عاصمة فرنسا، ويحاول أنْ يحصلَ على عناوين أماكن اللهو والخلاعة، وما إنْ يذهب إلى باريس حتى ينغمسَ في اللهو، وعندما يعود يظلّ يُفاخر بما فعل من المعاصي.

وأما الآخر فقد سافر إلى باريس للدراسة، وبينما هو هناك ارتكب معصية تحت إغراء وتزيين. إذن: هو إنسان وقعتْ عليه المعصية ودون تخطيط، وبعد أنْ هدأتْ شِرّة[2] الشهوة غرق في الندم، وبعد أن عاد استترَ من زمن المعصية.

هكذا نرى الفارقَ بين المخطِّط للمعصية، وبين مَنْ وقعت عليه المعصية.

والله سبحانه حين قَدّر أمر التوبة على خَلْقه رحم الخَلْق جميعاً بتقنين هذه التوبة، وإلّا لَغرق العالمُ في شرور لا نهايةَ لها، بدايةً من أول واحد انحرف مرة واحدة فيأخذ الانحرافَ عملاً له.

والمهم في التائب أنْ يكونَ قد عمل السوء بجهالة، ثم تاب من قريب.

والرسول ﷺ حين حدد معني «من قريب» قال:

---

(١) قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب. (تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٣).

(٢) الشرة: النشاط والرغبة. وشرة الشباب: حرصه ونشاطه. (لسان العرب ـ مادة: شرر).

«إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[1]»[2].

والحوار الذي دار بين الحق وبين إبليس:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

إن إبليس قال ذلك وظَنَّ أنه سيُهلك البشر جميعاً، ويُوقِعهم في المعصية إلا عباد الله الذين اصطفاهم وأخلَصهم له، لكن الله سبحانه خيَّب ظَنَّه وشرع قبول توبة العبد ما لم يغرغر، لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد.

فإذا ما قدَّم العبد التوبة لحظة الغرغرة، فماذا يستفيد المجتمع؟

لن يستفيد المجتمع شيئاً من مثل هذه التوبة، لأنه تاب وقت ألَّا شرَّ له، لذلك فعلى العبد أنْ يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من شرور المعاصي.

والحق سبحانه يقول:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ . . .﴾ [النساء: ١٧].

تأمل كلمة (إنما التوبة على الله) تجدها في منتهى العطاء، فإذا كان الواحد فقيراً أو مَديناً، وأحال دائنه إلى غنيّ من العباد فإن الدائنَ يفرح لأن الغني سيقوم بسداد الدَّيْن وأدائه إلى الدَّائن، فما بالنا بالتوبة التي أحالها الله على ذاته بكل كماله وجماله؟ إنه قد أحالَ التوبة على نفسه لا على خَلْقه، وهو سبحانه أوجبَ التوبة على نفسه، ولا يملك واحد أنْ يرجعَ فيها.

ثم قال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ . . .﴾ [النساء: ١٧].

أي: أن العبدَ يرجو التوبة من الله.

والحق سبحانه يُعلِن للناس في قرآنه:

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

---

(١) الغرغرة: تردد الروح في الحلق. (اللسان ـ مادة: غرر) وهو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤]، وذلك حين الاحتضار.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ١٣٢) والترمذي في سننه (٣٥٣٧) وقال: حديث حسن غريب. والحاكم في مستدركه (٤/ ٢٥٧) وصححه ووافقه الذهبي، وابن حبان (٢٤٤٩ ـ موارد الظمآن) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ، والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورته وعظمته، ولا يقال: (نبّئ) في خبرٍ بسيط، وسبق أنْ قال الحق سبحانه:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١، ٢].

وقال:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

وهو الإخبار بنبأ الآخرة، وما سوف يحدثُ فيها، وهنا يأتي سبحانه بخبر غُفْرانه ورحمته الذي يختصُّ به عباده المخلصين المتقين الذين يدخلون الجنة، ويتمتعون بخيْراتها خالدين فيها.

والحقُّ سبحانه خلقنا ويعلم أن للنفس هواجس، ولا يمكن أنْ تسلمَ النفسُ من بعض الأخطاء والذنوب والوَسْوسة، بدليل أنه سبحانه قد حرَّم الكثير من الأفعال على المسلم، حمايةً للفرد، وحمايةً للمجتمع أيضاً؛ ليعيش المجتمع في الاستقرار الآمن.

فقد حَرَّم الحق سبحانه على المسلم السرقةَ والزِّنا وشُرْب الخمر وغيرها من الموبقات[1] والخطايا والهواجس التي تقوده إلى الإفساد في الأرض.

وما دام قد حرَّم كل ذلك فهذا يعني أنها سوف تقع، ونزل منهجه سبحانه مُحرّماً ومُجرّماً لمَنْ يفعل ذلك، كما يُلزم كُلَّ المؤمنين به بضرورة تجنُّب هذه الخطايا.

وهنا يُوضّح سبحانه أن مَنْ يغفل من المؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها، ألَّا يُؤرّق نفسه بتلك الغفلات، فسبحانه رؤوف رحيم.

والحق سبحانه لا يُغلق باب التوبة أمام العاصي، فلو لم تُشرع التوبة والعفو والمغفرة من الله لَزَادَ الناس في معاصيهم وغرقوا فيها وتمادَوْا في الشّرّ.

(١) الموبقات: الذنوب المهلكات. وبق الرجل: هلك. قال الفراء: أوبقت فلاناً ذنوبه أي أهلكته. (لسان العرب ـ مادة: وبق). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: يا رسول الله وما هن؟. قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» أخرجه مسلم في صحيحه (٨٩) كتاب الإيمان.

إن الله تبارك وتعالى حين يفتحُ باب التوبة يريد لحركة العالم أنْ تسيرَ، هَبْ أنَّ نفساً غفلتْ مرة، أو قادتْها شهوتُها مرة إلى معصية، أو وسوس الشيطان لها كما حدث مع آدم وحواء.

لو لم تكُنْ هناك توبة ومغفرة لانقلبَ كل هؤلاء إلى شياطين، ولكن الحق سبحانه يُطمئن المؤمن على أغيار نفسه، وعلى أنه عندما يستجيب مرّة لنزغات الشيطان، فهذه لا تُخرِجه من حظيرة التقوى؛ لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين.

فقال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالفاحشة التي تكون من نَزْغ الشيطان وذكر العباد لله بعدها، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة، لا تُخرِجهم أبداً عن وَصْفهم بأنهم مُتقون؛ لأن الحق سبحانه هو الغفور:

﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ . . . ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فالحق سبحانه وتعالى يعلم أن بني آدم لا يمكن لهم أن يُراعُوا حقوقه كما يجب أنْ تُراعى، فلا بُدَّ أن تُفلتَ منهم أشياء، وهو سبحانه وتعالى يعلم ذلك؛ لأنه خالقه، فأمرهم ـ جَلَّتْ حكمته ـ أنْ يستغفروه، لِيُكفِّروا عن سيئاتهم.